الفصل السادس
الحضارة العباسية

* نظم الحكم والإدارة.
* النظام العسكرى (الجيش والأسطول)
* الحياة الاقتصادية.
* الحياة الاجتماعية.
* الحياة الثقافية والفكرية.
* الفنون.

نظم الحكم والإدارة
عند العباسيين

أولا: النظام السياسى:

١ - الخلافة أيام العباسيين:

كانت الدولة الإسلامية، قد اتسعت رقعتها وانفتحت على غيرها من الشعوب غير العربية من أصحاب الحضارات القديمة كالفرس والروم والهنود.

وهذا ما جعل المسلمين يقتبسون عن الحضارات التى احتكوا بها، ويأخذون منها وعنها ما لا يتعارض مع أحكام شريعتهم. ففقدت نظم الحكم والإدارة فى الدولة الإسلامية العباسية كثيرا من عناصر بساطتها الأولى عهد الرسول الكريم وعصر الخلفاء الراشدين. وذلك التعقيد والزيادة فى المراسيم فرضه الوضع الجديد فى الدولة. وتبعا لذلك كان الخلفاء العباسيون:

أ - يحكمون بتفويض من الله لا من الشعب

بينما كان الخلفاء الراشدون يختارون من الشعب عن طريق الشورى ويستمدون قوتهم منه. وأبو بكر الصديق ينادى فى الناس بعد تولية الخلافة قائلا: "فإن أحسنت فأعينونى، وإن أسأت فقومونى. وإن كانت الخلافة الأموية قد أصبحت وراثية (ملكية) فقد كان الخليفة عمر بن عبد العزيز يقول "لست بخير من أحدكم ولكننى أثقلكم حملا". نرى أن العباسيين قد أقاموا حقهم فى الحكم بوصفهم وارثى بيت الرسول وأنهم قد تأثروا بالفرس فأخذوا عنهم نظرية الحق الإلهى أو الحق المقدس للحكام. أى أن الحاكم يتولى بتفويض مقدس من الله. وهكذا أصبح الخلفاء العباسيون يحكمون بتفويض من الله لا من الشعب، مما جعل الخليفة أبا جعفر المنصور يقول: "إنما أنا سلطان الله فى أرضه وأيضا الخلفاء

الأربعة: أبو بكر وعمر، وعثمان وعلى والملوك أربعة: معاوية، وعبد الملك، وهشام وأنا" وكان المنصور نفسه أول من تسمى بأسماء منسوبة إلى الله - المنصور بالله.

ب - يجعلون من الخلافة نظاما ثيوقراطيا:

كانت الخلافة الأموية دنيوية بحتة لأنهم لا ينتمون إلى البيت النبوى الشريف بيما جعل العباسيون من الخلافة نظاما ثيوقراطيا أى يسيطر عليه زعماء الدين وبما أن الخليفة العباسى كان أميرا للمؤمنين، وسلطته السياسية مستمدة من مكانته الدينية لذا حرصوا على أن يظهروا الفارق بين خلافتهم وخلافة بنى أمية.

ج - يحيطون بلاطهم بقواعد من البرتوكول:

بموجب تلك الحقوق والصفات التى اتصف بها الخليفة العباسى كان مطلق النفوذ. مستبد السلطان، بيده أمور الدين والدنيا. وهو المصدر الأول والأخير للسلطة وصاحب الأمر والنهى فى الدولة. وما دام الخليفة العباسى قد أصبح ظل الله فى أرضه فإنه كان عليه أن يحيط شخصه بالقداسة والرهبة فاحتجت عن رعيته، واتخذ السياسة، وأحيط بلاطه بقواعد من البروتوكول أشبه بتلك التى سادت بلاط آل ساسان بحيث ينحنى الداخل على الخليفة أمامه، ويقبل الأرض بين يديه، وإذا قرب منه قبل طرف ردائه، وهذا شرف كبير لا يناله إلا المقربون. وزيادة فى تقوية صفته الدينية كما تلقب الخلفاء العباسيون بلقب "الإمام" تأكيدا لصفتهم الدينية.

إلا أن تحجبهم عن الناس جعلهم لا يؤمنون الناس فى الصلاة ولا يقيمون خطبة الجمعة مثلما كان يفعل الخلفاء الراشدون.

د - يستبدون بالحكم حتى عهد الرشيد ثم بدأوا يضعفون تجاه الأتراك والفرس:

استبد الخلفاء العباسيون فى حكمهم حتى عهد الرشيد، ثم أخذ نفوذهم

يضعف تدريجيا نتيجة لازدياد نفوذ الأتراك. فأصبح خلفاء العصر العباسى الثانى مسلوبى السلطة ومحرومى النفوذ. حتى أنه غدا معظمهم ألعوبة فى أيدى قادة الأتراك وخير دليل إلى ما ذهبنا إليه فى حكمنا هو أن الخليفة المعتز كان لا يلتذ بالنوم ولا يخلع سلاحه لا فى الليل ولا فى النهار خوفا من الأتراك وبخاصة "بغا الصغير" ورأى بعض الخلفاء أن يتملق إلى قادتهم كما استنجد المستكفى بينى بويه، فآتى معز الدولة أحمد بن بويه إلى بغداد لمساعدته، لكن لم يمض وقت قصير حتى حجر على الخليفة وسمل عينيه فازدادت الخلافة العباسية ضعفا فى عهدهم، كما أسرف بعض الخلفاء إلى قلق أمراء بنى بويه بإضفاء الألقاب الضخمة الطنانة عليهم مثل "تاج الله" و"ضياء الملك" و"غياث الأمة" و"شاهنشاه". ثم سعى بنور بويه إلة تزويج بناتهم من بعض الخلفاء حتى تتحول الخلافة إلى أحفادهم.

وبقى الأمر كذلك عندما دخلت الخلافة العباسية فى ظل النفوذ السلجوقى إذ حل سيد محل أخر. بالرغم من أن السلاجقة لم يتخذوا من بغداد مركزا لهم وإنما أقاموا فى إيران مكتفين بأن ينوب عنه فى مركز الخلافة أحد موظفيهم للإشراف على شؤون العراق وتدبير أموره.

هـ - يعينون ولى عهدهم، ويأخذون له البيعة فى حياتهم:

لم تكن الخلافة العباسية على أساس الشورى كما كانت أيام الخلفاء الراشدين. وهذا يعنى أن الخليفة العباسى كان يعين ولى عهده، ويأخذ له البيعة فى حياته من وجه الناس والأعيان وكبار القواد، وعن طريق الولاة فى الأقاليم.

وإذا ما فكر الخليفة فى تولية العهد أكثر من واحد من أبنائه، وجب عليه أن يرتب لهم تتابع توليهم الخلافة، مما أثار أحيانا كثيرة الفرقة بين الأخوة، وخير شاهد على ما ذكرناه المهدى وولاية العهد للهادى والرشيد ثم تولية الرشيد للأمين والمأمون.

٢ - الوزارة أيام العباسيين

أخذ العباسيون نظام الوزارة عن الفرس. وكان وزير للعباسيين أبو سلمة الخلال، لكن معالمها لم تتحدد فى عهده. ولأن الدعوة العباسية قد قامت على أيدى الفرس وبمساعدتهم. فمن الطبيعى أن يكون وزراء العصر العباسى الأول من الأعاجم، مثل: البرامكة، وبنو سهل. وعلى أيدى هؤلاء اكتسبت الوزارة شكلها النهائى فى أواخر العصر العباسى الأول. وكان الوزير فى أيام العباسيين:

- ساعد الخليفة الأيمن.
- نائب عنه فى حكم البلاد.
- يعين الولاة.
- يشرف على الضرائب.
- يجمع فى شخصه السلطتين المدنية والحربية.
- صاحب المشورة التى تسترشد بها الخليفة.

وكان الوزراء فى العصر العباسى الأول يتجنبون تسمية أنفسهم باسم "وزير" على الرغم من قيامهم بأعمال الوزراء ومهامهم، فإليهم يرجع الفضل فى ضبط أمور الدولة ونشر لواء الأمن والعدل بين الرعية، ومرد ذلك إلى تخوف الوزراء من الخلفاء بعد أن لقى البعض منهم حتفه على أيديهم. ولكن هذا لم يمنع الوزراء من الإقبال على اكتساب الألقاب المنسوبة إلى الدولة مثل: عماد الدولة، وعز الدولة وركن الدولة.

وكانت الوزارة أيام العباسيين ضعيفة أمام قوة الخلافة، وقوية كلما ضعفت الخلافة. لذا تطرق الفساد إلى منصب الوزارة فى عهد الخليفة المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠هـ) لأتباعه سياسة خرقاء فى تعيين وزرائه وعزلهم، حتى تقلد الوزارة فى عهده اثنا عشر وزيرا عزل بعضهم أكثر من مرة. وكان لضعف الوزراء فى ذلك

العصر وازدياد نفوذ القواد أن تضاعفت هيبة الوزارة فلم يبق للوزراء شيء من النفوذ. فاقتصرت وظيفتهم على الحضور إلى دار الخلافة فى أيام الركوب (المواكب) مرتدين السواد، متقلدين السيوف والمناطق وغيرها من شعارات الوزارة. وأصبح تعيين الوزراء وعزلهم بيد أمير الأمراء الذى هيمن على شؤون الخلافة والوزارة والدولة جميعا وبخاصة فى عصر البويهيين والسلاجقة.

ومع هذا فقد كانت الوزارة أيام العباسيين وزارة تنفيذ ووزارة تفويض.

- وزارة التنفيذ:

يقتصر النظر فى وزارة التنفيذ على ما يراه الخليفة. ويكون الوزير فيها واسطة بين الخليفة والناس، يمضى ما يأمره به الخليفة من تعيين الولاة، وتجهيز الجيوش وقادتها، ويعرض عليه ما ورد من مهم، وما استنجد من حديث.

- وزارة التفويض:

أما وزارة التفويض، فيستوزر الخليفة فيها رجلا يفوض إليه تدبير الأمور برأيه وعلى اجتهاده. فيتولى الوزير كل شيء بسلطات واسعة، ويفوض فى الأمور الدولة والتصرف فى شؤونها دون الرجوع إلى الخليفة كما كان ليحيى البرمكى فى خلافة الرشيد.

وفى عهد بنى بويه بدءا من سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م. فقد اختفى الوزراء لأن هؤلاء حلوا محلهم. واستبدوا بأمور الخلافة، واطعنوا الوزراء الذين امتازوا بالكفاية والفضل أمثال: ابن العميد وزير ركن الدولة بـ بويه، والصاحب بن عماد وزير مؤيد الدولة ثم فخر الدولة وغيرهم، وصار يطلق على الوزير لقب "أمير الأمراء" حتى إذا تخلص السلاجقة من البويهيين منحوا الخلفاء مزيدا من السلطة والقوة.

الكتاب أيام العباسيين:

اتسعت الدولة العربية الإسلامية فى عهد الخلفاء الراشدين وضمنت شعوبا وطوائف عديدة من الناس، فكان لابد لهذه الدولة من أن ينشأ فيها جهاز وظيفى يتولى أعمال الكتابة التى يوجهها الخليفة إلى الوزير أو القضاء والولاة فى الأقاليم وتسجيل الرسائل الواردة من الولاة والقضاة إلى الخلافة، وكذلك فى سائر الدواوين كانت هناك الحاجة إلى من يتولى الأعمال الكتابية فيها.

وفى العصر الأموى والعصر العباسى استمرت تلك الحاجة إلى مجموعة من الموظفين أو الكتاب للقيام بالأعمال الكتابية بخاصة فى العصر العباسى الأول بعدما تعددت الدواوين لمساعدة الوزير فى أعماله الواسعة، وللإشراف فى هذه الدواوين فاقتضى طبقا لذلك أن يكون لكل وزير كاتب أو كتاب يساعدونه وأن يكون لكل وال من ولاة أقاليم ورجال رجال الدولة كتابا أو أكثر.

ويرأس جماعة الكتاب الوزير. وأحيانا كثيرة كان بعض الكتاب يتدرجون فى الرقى إلى أن يتولوا الوزارة معتمدين عاى كفايتهم الكتابية وبلاغة أقلامهم.

وتولى العمال الكتابية فى الخلافة العباسية الفرس، قبل الوزراء، لأن الفرس كانت لهم القدرة الفائقة فى الكتابة، بينما كان العرب يفخرون بالسيف لا بالقلم. لذا نجد كثيرا من الكتاب فى العصر العباسى يحذون حذو أجدادهم الفرس، حتى فى مظهرهم الخارجى. وكان لامتلاك بعض الكتاب إلى ثقافة أوسع من ثقافة غيرهم، ودائرة معارفهم واسعة، ودرايتهم بأحوال الناس الاجتماعية وتقاليدهم كبيرة. هذا فضلا عن إجادتهم عملهم كان يتطلب دراية فى اللغة والأدب وعلوم الدين والفلسفة والتاريخ والجغرافيا، إلى جوانب كثيرة قد تعرض فى مسائل للخليفة أو الوزير أو الوالى.

ولما كانت الأعمال الكتابية مهمة خطيرة يجب على من يتولاها أن يتحلى بأخلاق حميدة وثقافة واسعة ودقيقة، فقد تعددت الكتب التى ألفت لجماعة

الكتاب بالذات. فألف ابـن قتيبة كتـابا اسمه "أدب الكاتب" أوضح فيـه الكثير من ألوان المعرفـة التى اعتقد (ابن قـتيبة) أن الكتاب بحـاجة إليها. كـما ألف أبو بكر الصولى كتاب "أدب الكـاتب" توسع فيه من شراء أمور كثيـرة لم يعرض لها ابن قتيـبة. ونصح "عبد الرحـمن الكاتب" الكتاب فقـال "فنافسوا معشـر الكتاب فى صفوف العلم والأدب، وتـفقهوا فى الدين، وابدأوا بعلم كـتاب الله عز وجل أو الفرائض، ثم العربية فإنها ثقافـة ألسنتكم، أجيدوا الخط فإنه حلية كتبكم. وراووا الأشعار، واعرفوا غريبها ومعانيـها، وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها، فإن ذلك معين لكم على ما تسعون إليه يهـمكم. ولا يضعفن نظركم فى الحساب فإنه قوام كتاب الخراج منكم".

وتنوع الكتاب تبـعا الدواوين فى ذلك العـصر. فكان منهم كتـاب الرسائل وكتـاب الخراج وكتاب الجند وكـتاب الشرطة وكـتاب القاضى. وقد كـان صاحب ديوان الرسائل الكاتـب الأهم والأعلى شأنا من غيـره إذ كان عليه إذاعـة المراسيم والبراءات وتحـرير الرسائل السياسـية، وختـمها بخاتم الخـلافة بعد اعتـمادها من الخليفة، ومراجعة الرسائل الرسمية ووضعها فى صيغتها النهائية.

وكانت مهمة كاتب الرسائل تشبـه وزارة الخارجية اليوم. فكان يتولى مكاتبة الملوك والأمراء عن الخليفـة، وبأسلوب شائق وبليغ. لذا روعى فى الكاتب رصانة الأسلوب وسعـة العلم. فضلا عن عـراقيل الأصل. وأوجز ابن خلدون الصـفات التى يجب توافـرها فى الكتاب عـامة وكـاتب الرسائل خـاصة فقـال: "واعلم أن صاحب هذه الخطة لابد من أن يعتبر من أرفع طبقات الناس وأهل المروءة والحشمة منهم، وزيادة العلم، معرفة البلاغة.. فإنه معرض للنظر فى أمور العلم لما يعرض فى مجلس الملوك. ومـقاصد من أمثـال ذلك، مع ما تدعوا إليه عـشرة الملوك من القيـام على الآداب والتخلق بـالفضائل، مع مـا يضطر إليه فـى الترسيل وتطـبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها. . . . ".

٤ - الحجابة أيام العباسيين:

لم تعرف الحجـابة ولا الحجاب أيام الخلفاء الراشدين لأنـهم لم يمتنعوا عن مقـابلة الناس أو مخاطبتـهم مهمـا اختلفت مراتبهـم، ولم يمنع من الدخول على الخلفاء أى إنسان. وما أن انتقل الحكم إلى الأمويين، اتخـذ معاوية بن أبى سفيان وخلفاؤه من بعـده الحجاب، وذلك خوفا على أنفـسهم من شر الناس بعدمـا كثر المعارضون لحكمهم وبخاصة الخوارج والعلويين (شيعة الأمام على بن أبى طالب)، على أثر مقتل الأمام على ومحاولة قتل معاوية وعمرو بن العاص. وليس فقط من هذا القبـيل، بل تلافيا لمنع ازدحام الناس على أبواب الخلـفاء بعدما اتسـعت رقعة الدولة وشملت طوائف وأجناس مـختلفة من البشر، وشـغلهم عن النظر فى أمور الدولة ومهامهـا. وهكذا صارت مهمة الحجاب الوقـوف على باب الخليفة لإدخال الناس عليه، مراعين فى ذلك مقامهم وأهمية أعمالهم.

والخلفاء العباسيون الذين احتـجوا عن الناس لأجل إحاطة أنفسهم بهالة من القدسـية والرهبة. لم يـكن من الغريب على الرعيـة إذا ما بلغوا فـى منعهم عن مقـابلتهم إلا فى الأمور الهـامة. وهذا ما حـدا بابن خلدون إلى تسمـية هذا المنع بالحجـاب الثانى، وصار بين الناس وبين الخليـفة داران: دار الخاصة، ودار العـمة ويقابل كل طائفة فى مكان معين وفق ما يراه الحجاب.

ازداد نفوذ الحـاجب مع الزمن وكذلك خطورة مهمـته أيام العباسـيين، ولم يمض وقت طويا حـتى صار يسـتشار فى كـثيـر من أمور الدولة بحكم قـربه من الخليفة، الأمر الذى جعله يستبد بالنفوذ دون الوزير، حتى صار أصحاب الدواوين ملزمين بالرجوع إليـه فى أكثر أمور الدولة. وإمعانـا فى تدخله وتحكمه حتم على أصحـاب الدواوين ألا يفصلوا فى الأعـمال إلا بعد مـوافقـته. فأدت مـداخلات الحجاب إلى استشارة الوزراء ودفعهم إلى الدس فى حق الحجاب عند الخلفاء.

ثانيا: النظام الإدارى:

بدأت الدولة العباسية منذ نشأتها الأولى بتطبيق السياسة المركزية. فكان الولاة أقل نفوذا وأضيق سلطانا منهم فى عهد اتباع سياسة اللامركزية أو الإقليمية بدءا من خلافة هارون الرشيد إذ صار الولاة فيها أكثر نفوذا وحرية. وقد قسم الماوردى فى كتابه "الأحكام السلطانية" الإمارة على الأقاليم إلى ثلاثة أنواع:

أ - إمارة استكفاء:

يفوض الخليفة فيها إلى الوالى إمارة الإقليم، على أن تحدد صلاحياته بتدبير الجيش، والنظر فى الأحكام وتقليد القضاة وجباية الخراج، وحماية الدين، والذب عن الحريم، وإقامة الحدود فى حق الله وحقوق الآدميين، والإمامة فى أيام الجمع والجماعات، وتسيير الحجيج، وإذا كان الإقليم ثغرا أضيف إلى عمل الوالى جهاد من يله من الأعداء.

ب - إمارة استيلاء:

وهى أن يستولى أحد الأمراء قسرا على ولاية، فيضطر الخليفة إلى إقراره عليها، ويفوض إليه تدبيرها وسياستها.

ج - إمارة خاصة:

تقتصر صلاحيات الوالى فى الإمارة الخاصة على تدبير الجيش وسياسة الرعية والذب عن الحريم وعلى إلا تشمل صلاحياته التعرض للقضاء، والأحكام وجباية الخراج.

١ - الوالى:

كان العباسيون يكلفون بعض أفراد البيت العباسى وأكابر القواد بالولايات الإسلامية البعيدة، لأن ولاة العصر العباسى الأول كانوا رعاة يمسكون خيوط الدعوة ويتصلون بالنقباء. وكان الإقبال على تولى مركزا الولاية كبيرا، وكثيرا ما

كان الوالى على غرار البـرامكة، يبالغ فى استغـلال وظيفته وما دام كـذلك، فقد تعرض الولاة للعزل ومصادرة أموالهم وتركهـا فى بيت مال، سماه الخليفة المنصور "بيت المظالم" بعدما يكتب عـليها أسماء أصحـابها. فقد قال أبو جعـفر المنصور لأبنه المهدى قد هيأت لك شـيئا، فإذا مت فادفع من أخذت مـاله فارددده عليه فإن نجا تستـحمد بذلك إليهم والى العامـة. ولما ضعفت الدولة العباسـية، صار الولاة يؤثرون البقـاء فى بغداد أو فى سامـراء، وينيبون عنهم مـن يتولى حكم الولايات باسـمـهم حـتى إذا لمس بعض الولاة أو نوابـهم ضـعف الدولة جنحـوا إلى الاستقـلال والأدلة كثيرة فى قيـام الدول المستقلة فى المشرق والمغـرب، وفى مصر والشام.

كان صاحب الخراج الساعد الأيمن للوالى، وعمله يقتصر على جمع الخراج وإرساله إلى بيـت المال فى العاصمـة والإنفاق على مـا تطلبه الدولة من مـشاريع إصلاحية حـتى إذا اجتمعت وظيفتا الوالى وصـاحب الخراج (العامل) إلى شخص واحد شكل خطرا على الخلافة.

وكـان يساعـد الوالى وصاحب الخـراج (عـامل الخراج) فى المدن عـدد من الموظفين أهمـهم: القاضى، والبندار (مـهمتـه المطالبة بالخـراج) وصاحب الجند، وصاحب البـريد، ومتولى الضيـاع السلطانية، وصاحب المعونة (مـهمته مـساعدة صاحب الجند). يتم تعـيين هؤلاء الموظفين الوزير، على انه جرت الـعادة، يعزلوا بعـزله، ويعـودون بعـودة الوزير ثانيـة، وهذا مـا تسـبب فى إشـاعـة الفـوضى والاضطراب فى الولايات العبـاسية، وبخـاصة فى المصريين العـباسيـين: الثالث والرابع.

ولما كان منصب الوالـى المناصب الخطيرة، يعين من أبنـاء أمراء الجند الذين فيهم الصفات الآتية:

١ - الحزم فى التقرير.

٢ - العلم الذى يدرأ عن التهور والتغرير فى الأشياء.

٣ - الشجاعة فى الثواب والعقاب والإحسان.

٤ - الصرامة بالنسبة لأهل الزيغ والعدوان ومواجهة الخطاء.

٢ - الدواوين:

لم يكن الخليفة العباسى، فى دولة اتسعت رقعتها إلى ما وصلت إليه فى الأيام الخليفة الرشيد، وأن تستقر البلاد وتستقيم الأمور بعد أن ازدادت سلطاته وتنوعت أعماله وكثرت مشاكله الداخلية والخارجية، من أن يوزع الأعمال. ومن هنا جاءت الحاجة إلى إنشاء عدد من الدواوين. التى قامت بعمل نفسها التى تقوم بها الوزارات فى عصرنا الحاضر. ومن أهم هذه الدواوين:

أ - ديوان الجيش.

ب - ديوان النفقات وتدخل ضمن صلاحياته حاجات دار الخلافة.

ج - ديوان بيت المال الذى يشرف على ما يرده من أموال وما يخرجه من نفقات.

د - ديوان الرسائل (الإنشاء).

هـ - ديوان البريد.

ز - ديوان الخاتم.

ح - ديوان الفض، وفيه تفضل كتب الواردة من الأمراء والأعمال إلى الخليفة.

ط - ديوان الأكره: ويشرف على بناء وإصلاح الترع والجسور وشؤون الرى.

وجعل لكم ولاية من ولايات الدولة العباسية فى بداءة الأمر ديوان كبير ببغداد يشرف على شؤونها، كما كان الديوان مقسما إلى قسمين: الأول ويسمى

الأصل، تسن فيه الضرائب وتحمل إلى بيت المال. والثانى، الزمام أو ديوان المال واستمر هذا النظام إلى أن تولى الخلافة المعتضد سنة٢٧٩هـ/ ٨٩٢م. فضم كل دواوين الدولة بعضها إلى بعض، وكون منها ديوانا واحدا أطلق عيه اسم "ديوان الدار الكبير" ثم قسمه إلى ثلاثة أقسام: ديوان المشرق، وديوان المغرب، وديوان السواد أى العراق وأسند الأصل إلى شخص واحد، والزمام لشخص أخر، وأنط مصالح غير المسلمين بديوان خاص أطلق عليه "ديوان الجهبذة".

- ديوان البريد:

إن أول من وضع نظام البريد فى الإسلام ومعاوية بن أبى سفيان الذى أخذه عن البيزنطيين. وكان لديوان البريد خاصة مكانة فريدة فى العصر العباسى، اهتم الخلفاء العباسيون به واعتمدوا عليه اعتمادا كبيرا فى إدارة شؤون دولتهم. وقيل عن الخليفة أبى جعفر المنصور إنه كان يقول. "ما كان أحوجنى إلى أن يكون على بابى أربعة نفر، لا يكون على بابى أعف منهم. فقيل له يا أمير المؤمنين؟ قال هم أركان الملك، لا يصلح الملك إلا بهم، كما أن السرير لا يصلح إلا بأربعة قوائم إن نقصت واحدة تداعى. أما أحدهم فقاض لا تأخذه فى الله لومة لائم الأخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى والثالث، صاحب خراج يستقصى ولا يظلم الرعية فإنى عن ظلمها غنى. والرابع... ثم عضد على أصابعه السبابة ثلاث مرات ويقول فى كل مرة آه آه.. قيل له: ومن هو يا أمير المؤمنين؟ قال: صاحب بريد يكتب إلا بخبر هؤلاء على الصحة".

يبين لنا هذا القول مدى خطورة مهمة صاحب البريد الذى كان عين الخليفة الساهرة على الأصدقاء والأعداء جميعا، يراقب العمال والولاة ويتجسس على الأعداء ويبعث بأخبار هؤلاء جميعا إلى الخليفة. وقد أوجز قدامة بن جعفر الشروط الواجب توافرها فى صاحب البريد قائلا: " يجب أن يكون ثقة، أما فى نفسه أو عند الخليفة القائم بالأمر فى وقته، لأن هذا الديوان ليس فيه من العمل ما يحتاج معه إلى الكافى المتصفح، وإنما يحتاج إلى الثقة المتحفظ" كما ذكر

القلقشندى، إن من صفات البريدى "أن يكـون قديرا على تنميق الكلام، وتحسين العـبارة. صـحيح الفكرة والمزاج، ذا بـيان وعـارضة ولين. صـدوقا، بريئـا من الطمع" . . . .

ولم تقتصر مهمة عمال البريد فى الدولـة العباسية على موافاة الخليفة كل ما يجرى من أعمال فى دولته، وما يقوم به الولاة وما يقضى به القضاة، وما يرد إلى بيت المال من أمـوال. وإنما كانوا يوافـونه بأسعـار الحاجـيات من قـمح وحـبوب وغيرها. وفى أيام أبى جعفر المنصور كان عمال البريد يوافونه بما يجرى مرتين فى اليوم، فـإذا صلى المغرب وافوه بما حدث نهـارا، وإذا صلى الصبح كتبـوا إليه بما جرى ليلا. .وبهـذا كان الخليفة على علم بكل ما يجرى فى الولايـات الإسلامية، فيوقف القاضى عند حده إذا ظلم ويعيد السعر إلى حالته الأولى إذا غلا، ويعاقب العامل إذا قصر أو أخطأ.

وتسهيلا لمهمة عمال البـريد، وحتى تصل الأخبار بأقصى سرعة إلى الخلفاء فقد ربط العباسـيون بين سائر الولايات العباسية الإسلامية والعـاصمة بغداد بشبكة من الطرقـات، وأنشأوا عليـها المحطات للاستـراحة، ومن أهم المسـالك فى دولة العباسية:

أ - **طرق المغرب**: بغداد - الشام - مصر - القيروان فى المغرب.

ب - **طريق الشام**: بغداد - الأنبار - الشام.

جـ - **طريق المشرق**: بغداد - مـرو - وبخارى - وجـيجون وفـرغانة. . . إلخ.

واستعملوا فى نقل البريد البغال والخيل، ثم استخدموا بعد ذلك الجمازات، أى العربات التى تجرها الخيول السريعة، وفى القرن الرابع الهجرى، استخدم عمال البريد الحـمام الزاجل فى نقل الرسائل بعدمـا شاع هذا النوع من البريد ولا سـيما عند الفرق الباطنية بخاصة منها: الفاطميون وكانت المسافات عندهم تقاس بالأميال

فى البلاد الواقعة غربى نهر الفرات وبالفراسخ فى بلاد الواقعة شرقى هذا النهر. هذا ويفترض فى البريدى أن يكون ا معرفة تامة بالطرق ووعورتها فيتجنب سلوك الجبال والوهاد ومجارى الأنهار فيؤدى مهمته بأسرع وقت على أحسن وجه.

وكان البريد موضع اهتمام بنى بويه، حتى بلغ فى عهدهم مبلغا عظيما من الدقة والسرعة، وبخاصة عندما أخذت الدولة إجراءات قاسية بحق كل من يتوانى فى أداء واجبه من موظفى البريد وادخل معز الدولة البويه "نظام السعادة" - كان يقال لهم أيضا الفيوج - وهم جماعة من موظفى البريد يتخصصون فى نقل البريد السريع من مكان إلى أخر. وقد اخلص هؤلاء إلى معز الدولة. وأقبل أولاد الفقراء على الالتحاق بهذا العمل والتدرب عليه لما كان يوزع على أفراده من أرزاق وجرايات كثيرة.

وكان صاحب ديوان البريد يشرف على البريديين والبراجين وشؤون أرزاقهم ومراقبة المراسلات الصادرة والواردة من جميع الأقاليم، ثم فرزها لتصل إلى أصحابها تولى كتب أصحاب البريد فى جميع النواحى على الخليفة.

٣ - الأمن:

أنيط حفظ الأمن فى جميع أنحاء الدولة العباسية بجهاز الشرطة. لذا كان يختار صاحب الشرطة من علية القوم ومن أهل العصبية والقوة. يتولى صاحب الشرطة رئاسة الجند الذين يساعدون الوالى فى تثبيت الأمن وحفظ النظام والقبض على الجناة والمفسدين. وقد اتخذت الدولة العباسية فى كل مدينة من المدن جماعة من الجند برئاسة من ينيبه صاحب الشرطة الذى يتخذ من العاصمة أو مركز الولاية مقرا له. وقام رجال الشرطة بمهمة حفظ الأمن وإقرار النظام وتنفيذ أحكام القضاة، وبالسهر ليلا على راحة الناس (العسس) بإشراف رؤسائهم الضباط خير قيام. ولم تبخل الدولة على هؤلاء جميعا بالمرتبات الكبيرة منعا للغش والبرطيل وحفظا للقيام بواجباتهم على أكمل وجه. وكانت الشرطة تتبع القاضى فى بادئ الأمر، يعمل صاحبها على إقامة الحدود بالقبض على المجرمين وتنفيذ أحكام

القضاة فيهم. لكنها لم تلبث أن انفصلت عن القضاء، فاستقل صاحب الشرطة بالنظر فى الجرائم. وكان تعيين صاحب الشرطة يتم من قبل الوالى فى الولاية وليس الخليفة، وكذلك عزله عنها.

ثالثا: النظام الحربى:

١ - الجيش:

اعتمدت الدولة العباسية على جيش قوى، كثير العدد، مجهز بمختلف أنواع العدد ليكون القادر على رد أعدائها فى الخارج، والقضاء على الثوار والخارجين عليها فى الداخل. وبينما كان الجيش فى عهد الرسول الكريم، وعهد الخلفاء الراشدين والأمويين يتألف من العنصر العربى، نرى بأن العباسيين يعتمدون على الفرص فى إقامة دولتهم، وبالتالى على العنصر الفارسى فى تكوين الجيش العباسى خاصة بعدما كثرت المنازعات العصرية التى كانت تشعل نارها بين الجند العربى من حين إلى أخر، ولاسيما بين اليمنية والمضرية. ولما تولى الخلافة المعتصم سنة ٢١٨هـ. اعتمد على الأتراك، وآثرهم على الفرص والعرب جميعا، فزاد عدد الأتراك فى عهده على السبعين ألفا. فاستاء القواد وخاص العرب منهم، من هذه السياسة بعد أن محا أسمائهم من ديوان العطاء، حتى اضطر المعتصم على بناء سامراء لتكون مركزا له ولجيشه الجديد. ثم لم يلبس أن ازداد نفوذ العنصر التركى زيادة كبيرة أصبح معها الخلفاء ألعوبة فى أيدى القادة الترك، مما أضاع هيبة الخلافة وقد تحول الجنود الأتراك عند ذلك إلى عنصر لإثارة الفوضى والقلاقل، وخاصة إذا تأخر رواتبهم، المر الذى جعل بعض الخلفاء مثل المعتز (٢٥٢ - ٢٥٥هـ) يعتمد المغاربة والفراعنة دون الأتراك مما أدى إلى مقتله على أيدى هؤلاء الآخرين انتقاما.

١ - أقسامه:

انقسم الجيش العباسى إلى قسمين: أولا: الفرسان أو الحربية وهم الذين

كـانوا يتسلحـون بالرماح وهم من جـند العرب. وثانيـا: المشاة وهم من الفـرس ولاسيما الخراسانيين بسبب مساندة هؤلاء للعباسيين فى إقامة دولتهم.

وقسم الجيش العباسى أيضا إلى فرق، كل فرقة من عشرة آلاف جندى بأمره أميـر، وتتكون الفرقة من كتـائب كل كتيبـة من ألف جندى بقيادة قـائد، وتنقسم الكتيبـة إلى وحدات، كل وحدة من مائة جندى برئاسة نقـيب، ثم تنقسم الوحدة إلى فصـائل كل فصيلة من عـشرة جنود عليها عـريف. وأثناء القتال كـان الجيش العـبـاسى يتألف مـن تشكيل على الشكل الآتى: القلـب، والميمنة، والمـيسـرة، والطليعـة والساقـة. وتألفت من الجند الأتراك على توالى الأيام الفـرق التى كانت تنسب كل منها إلـى صاحبهـا كالساجنة إلى أبى السـاج، والصلاحيـة إلى صلاح الدين.

والأسدية النظامية وأمثالهما. وكثيرا ما كانت الحروب تنشب بين هذه الفرق تنازعا على النفوذ أو على المال.

ب - صلاحية الجندى للقتال:

وكان للجيش العباسى ديوان خاص به، يتألف من مجلسين: مجلس التقرير تسجل فيه رواتب الجند بعد تقديرها، وأوقات دفعها إليهم. ومجلس المقابلة الذى تتم فيـه عملية الإشراف على سـجلات الجند مراجـعة أسمائهم ونحـو ذلك. أما صلاحية الجند للخدمة العسكرية، فكانت تخضع لاختبار دقيق يشرف عليه جماعة من كبار القواد، ويروى هلال بن الصابئ كيفية إجراء هذا الاختبار فى عهد الخليفة المعتضد بقـوله: كان يجلس الخليفة والقواد والغلمان بين يـديه فى الميدان "ويتقدم القائد ومعه جريدة بأسماء أصحابه وأرزاقهم، فيأخذها خادم منه، ويصعد بها إلى المعتضد بالله، ويدعوا عبيد الله بن سليمـان بواحد واحد ممن فيها، فيدخل الميدان ويمتحن على الرجاص (الهـدف) فإن كان يرمى رميا جيدا وهو مـتمكن من نفسه ومستقر فى سرجه ومصيب أو مـقارب فى رميه، علم على اسمه (ج) وهى علامة جيـد ومن كان دون ذلك علم عليـه اسمه (ط) وعى عـلامة المتـوسط، ومن كان

متخلفا لا يحسن أن يركب فرسه أو يرمى هدفه، علم على اسمه (د) وهى علامة الدون. . . . . " .

ج - سلاحه:

يتألف سلاح الجيش العباسى من الرماح والسيوف والحراب والتروس والنشاب إلخ. . . ويلبس أفراده الخوذ الحديدية لتقى رؤوسهم، والدروع لتقى صدورهم. كما كانت فرقة من فرق الجيش فصيلة لقذف النفط، اشتهر أفرادها بلقب "النفاطين" الذين يرتدون ملابس لا يؤثر فيها النيران عند اقتحام الحصون المشتعلة، وفصيلة أخرى المعماريين الذين يحملون المعاول إلى جانب التروس والسيوف. وأخيرا كان لدى العباسيين فرقة المنجنيقيين أى الذين كانوا يستخدمون المنجنيق الرومى بكتل الحجارة على حصون الأعداء وتجمعاتهم، وهم أشبه برجال المدفعية اليوم.

ولم تغرب عن تفكير العباسيين أعمال الجاسوسية فى الجيش. فاستخدموا لذلك الرجال والنساء الذين غالبا ما كانوا يرحلون إلى بلاد الأعداء - الدولة البيزنطيه - متنكرين فى أزياء التجار والأطباء، من أجل جمع أخبار العدو ونقلها.

ثم أقاموا جيوش البرية والبحرية التى ربطت على حدود الدولة من غارات الأعداء وهجماتهم على حدود الدولة العباسية، كما أقاموا الثغور العباسية على مختلف الحدود مع الروم البيزنطيين.

واستمرت غزوات العباسيين ولاسيما منها الصائفة، لبلاد الروم والبيزنطيين، ردا على إغاراتهم وذودوا عن ثغورهم.

٢ - الأسطول البحرى:

اهتمت الدولة العباسية بأمر إنشاء أسطول بحرى قوى فى البحر الأبيض المتوسط للدفاع عن سواحلها الطويلة ضد هجمات الروم البيزنطيين على الثغور

الإسلامية فى البلاد الشامية أو المصرية، وللغزو أحيانا كثيرة. وقد استغل العباسيون خيرة أهل الثغور الشامية والمصرية فى إنشاء السفن وركوب البحر خاصة بعد أن نجحوا فى تقديم تلك الخبرات للعرب والعمل على إنشاء أسطول قوى فى العصر الأموى تمكن الأمويين بفضاه من غزو القسطنطينية نفسها.

واستمرت العناية بالأسطول البحرى طوال الأعصر العباسية لكن انشغال الخلفاء بالقضاء على الثورات الداخلية فبى البلاد، والسيطرة الفارسية ثم البويهية التركية على مركز الخلافة وتحكمهم بالخلفاء، أضعف السهر على تقوية الأسطول وبالتالى حد من أمر غزوه لبلاد الروم البيبزنطيين. فشعر الروم بهذا الضعف وعملوا بمشاكل الخلافة وما تواجه من تدخلات، فأغاروا سنة ٣٣٨هـ - فى عهد الخليفة المتوكل بالله - على مصر بحريا، واقتحموا دمياط فى نحو ثلاثمائة مركب، وعاثوا فيها فسادا، إذ أحرقوا دورها وجامعها الكبير وقتلوا كثيرا من رجالها، وسبوا العديد من نسائها، إضافة إلى الغنائم الكثيرة التى حملوها معهم إلى بلادهم.

على أثر هذا الهجوم، اهتم "عنيسة بن إسحق والى مصر (٢٣٨ - ٢٤٢هـ)، بتحصين الموانئ، والعناية بصناعة السفن لأجل الدفاع على الأقل. كما ظلت صناعة السفن موضع عناية الولاة الذين جاؤوا بعده إلى مصر حتى قامت الدولة الطولونية وأنشأ أحمد بن طولون أسطوله البحرى الكبير (٣٣) ثم تعززت هذه الصناعة البحرية الحربية عهد الدولة الفاطمية بعدما قام المعز لدين الله بإنشاء دار لصناعة السفن "بالمقدس" بنى فيها ستمائة مركب (شوانى: شانية).

رابعا: النظام القضائى:

انتشرت المذاهب الأربعة - الحنفى، المالكى، الشافعى، الحنبلى، فى البلاد الإسلامية منذ قيام الدولة العباسية، ولم يبق من مجال للاجتهاد، فأصبح القاضى يصدر أحكامه وفق أحد هذه المذاهب. ففى العراق كان القاضى يفصل فى الأحكام وفق مذهب "أبى حنيفة"، وفى الشام والمغرب وفق مذهب "مالك"،

وفى مصر وفق المذهب "الشافعى". أما إذا تقدم متخاصمان على غير المذهب الشائع بإقليم من أقاليم الدولة العباسية، كان القاضى ينيب عنه من يحكم بمذهب المتخاصمين.

١ - القضاء والقضاء:

أ - قاضى القضاة:

كان قاضى القضاة يختار من قبل الخلفاء العباسيين ومن بين المشهود لهم بخوف الله، وصدقهم ونزاهتهم وعلمهم الواسع فى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة والفقه الإسلامى. وكان على قاضى القضاة أن يقيم فى حاضرة الدولة، ويولى من قبله قضاة ينوبون عنه فى الأقاليم والأمصار. وأول من تلقب بلقب "قاضى القضاة" أبو يوسف صاحب كتاب الخراج فى عهد هارون الرشيد. كما اعتذر، عن قبول تولى منصب قاضى القضاة فى عهد أبى جعفر المنصور، أبو حنيفة النعمان، وقال له "اتق الله، ولا ترع فى أمانتك إلا من يخاف الله. والله ما أنا مأمون الرضا فكيف أكون مأمون الغضب"؟ وكذلك اعتذر أبو بكر الرازى (المتوفى سنة ٣٧٠هـ) عن قبول منصب قاضى القضاة بعد أن طلب منه ذلك مرارا.

ب - زى القضاة:

كان القضاة فى الأعصر العباسية يرتدون السواد شعار العباسيين. كما يعمم القاضى بعمامة سوداء فوق قلنسوة طويلة. وآثر القضاة فى القرن الثالث للهجرة القلنسوة السوداء على غيرها، حتى أنها أصبحت تميز القضاة عن غيرهم بصفة خاصة وتلبس مع الطيلسان.

ج - مكان انعقاد الجلسات:

كان القضاة يجلسون فى أول الأمر فى الجامع، حتى نادى البعض بأن هذا الوضع يسئ إلى حرمة بيوت الله، نظرا لما يكون بين المتقاضيين من خلافات

يصحبها ارتفاع أصواتهم لهذا منع الخليفة المعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩هـ) القضاة من الجلوس فى المساجد، الأمر الذى جعل بعض القضاة يفصلون بين الناس فى دورهم بينما كان لقاضى القضاة فى بغداد ديوان يعرف بديوان قاضى القضاة.

د - أعوان القضاة:

اتسعت سلطة القاضى فى العصر العباسى الأول، مع اتساع دائرة القضاء، وتنوعت اختصاصاته، وتعددت قضاياه، بعد أن كان عمله مقصورا على الفصل بين الخصوم، وصار يفصل فى الدعاوى والأوقاف وتنصيب الأولياء. فبات والحالة هذه لكل ولاية من ولايات الدولة العباسية قضاة يمثلون المذاهب الأربعة، ينظر كل منهم فيما ينشأ من منازعات بين من يدفعون بعقائد مذهبه.

ترتب على ازدياد أعمال القاضى أن ازداد أعوانه، وهم:

الكتاب:

هم الذين يختارهم القضاة لمساعدتهم فى إنجاز أعمالهم فينظمون جلسات القضاة ويدونون الأحكام ويكتبونها، وقد ينوبون عن القضاة إذا مرضوا. وقد اتخذ بعض القضاة إدخال نظام السجلات وجعلها تامة وافية فدون فيها الوصايا والديون.

الشهود:

هم الذين كانوا ملازمين للقضاة، فيروى الكندى أن القاضى إذا شهد عنده أحد معروف بالسلامة، قبل القاضى شهادته. وإذا كان غير معروف بها أوقف. وإذا كان الشاهد مجهولا لا يعرف، سئل عنه جيرانه، فما ذكروه به من خير أو شر، عمل به.

انتشر الفساد وعمت الرشوة القضاء والقضاة بعدما ضعفت الدولة العباسية، فعرف بعض القضاة الرشوة وشرب الخمر وسماع المغنيات. وأدت هذه الأوضاع

إلى أن صار بعض القضاة المرشحين لمنصب قاضى القضاة يتعهدون بتقديم مبلغ من المال يؤدونه فى كل سنة. وتجاسر ابن أبى الشوارب بأن: "شرط على نفسه أن يحمل فى كل سنة إلى خزانة معز الدولة مائتى ألف درهم، وكتب بذلك سجلا".

لكن الخليفة المطيع العباسى (٣٣٤ - ٣٦٣هـ) لم يوافق على تقليد هذا القاضى وأمر بمنع دخوله عليه. ويذكر ابن الأثير عن ابن أبى الشوارب" وهو أول من ضمن من القضاة، وكان ذلك أيام معز الدولة"، ولم يسمع بذلك قبله، فلم يأذن له الخليفة المطيع لله الدخول عليه، وأمر بأن لا يحضر الموكب لما ارتكبه من ضمان القضاء ثم ضمنت بعده الحسبة والشرطة ببغداد. . . . ".

٢ - المظالم:

كان للمظالم ديوان خاص عرف بديوان المظالم، يشبه هيئة قضائية عاليا، أو ما يعرف اليوم بمحكمة الاستئناف. يسمى هذا الديوان "صاحب المظالم". إلا أن سلطته أعلى بكثير من سلطة القاضى. ويعرف ابن خلدون وظيفة صاحب المظالم بأنها: "هى وظيفة ممتزجة من سطوة السلطنة ونصفة القضاء، وتحتاج إلى علو يد وعظيم رهبة، تقمع المظالم من الخصمين وتزجر المتعدى، وكأنه يمضى ما عجز القضاة أو غيرهم عن إمضائه".

وتولى بعض الخلفاء بأنفسهم النظر فى المظالم. فقد ذكر المسعودى أن الخليفة المهتدى (٢٥٥ - ٢٥٦) قد بنى قبعة لها أربعة أبواب كان يجلس فيها، سماها "قبة المظالم" جلس فيها للعام والخاص. وسواء انعقدت محكمة المظالم برئاسة الخليفة أو الوالى أو من ينوب عنهما، فعلى صاحب المظالم هذا أن يعين يوما يقصده فيه المتظلمون إذا كان من الموظفين ليتفرغ لأعماله الأخرى. أما إذا انفرد بالمظالم فقط فإنه ينظر طوال الأسبوع.

وفرق الماوردى فى كتابه "الأحكام السلطانية" بين نظر المظالم ونظر القضاء

منها: أن الناظر فى المظالم له من فضل الهيبة وقوة اليد ما ليس لناظر القضاء مما يكفى الخصوم عن التجاحد ويمنع الظلمة من التغالب. إضافة إلى أن ناظر المظالم يستعمل من الإرهاب ومعرفة الإمارات والشواهد ما يصل به إلى معرفة الحق من البطل، وقد حدد الماوردى اختصاصات صاحب المظالم بـ:

١ - النظر فى القضايا التى يقيمها الأفراد والجماعات على الولاة إذا انحرفوا عن طرق العدل والإنصاف، وعلى عمال الخراج إذا اشتطوا فى جميع الضرائب.

٢ - النظر فى تظلم المرتزقة إذا انقضت أرزاقهم أو تأخر ميعاد دفعها لهم.

٣ - تنفيذ ما يعجز القاضى والمحتسب عن تنفيذه من الأحكام.

٤ - مراعاة إقامة العبادات كالحج والأعياد، والجمع والجهاد. . . . .

وقد تطور مع الوقت اختصاص محكمة المظالم، فلم تنظر فى قضايا الأفراد فقط بل تعدادها إلى النظر والفصل فى شكاوى الشعب عامة. على أن محكمة المظالم كانت تعقد غالبا فى المساجد، ويحاط بصاحب المظالم خمس جماعات لا ينتظم عقد جلساته إلا بحضورهم وهم:

أ - الحماة والأعوان:

وتقتصر مهمتهم على حفظ الأمن والنظام فى الجلسة وكانوا من القوة بحيث يستطيعون التغلب على من يلجأ إلى العنف أو يحاول الفرار من وجه القضاء.

ب - الحكام:

ويقتصر عملهم بالإحاطة بما يصدر من أحكام لرد الحقوق إلى أصحابها، والعلم بما يجرى بين الخصوم، فيلمون بشتات الأمور الخاصة بالمتقاضين.

جـ - الفقهاء:

كان صاحب المظالم يرجع إليهم فيما أشكل عليه من مسائل شرعية.

د - الكتاب:

يقوم الكتاب بتدوين أقوال الخصوم. وإثبات مالهم وما عليهم من الحقوق.

هـ - الشهود:

يهتم الشهود بإثبات ما يعرفونه عن الخصوم. والشهادة على أن ما أصدره القاضى من الأحكام لا ينافى الحق والعدل.

٣ - الحسبة والمحتسب:

كان عمل المحتسب يقتصر على النظر بالنظام والآداب العامة التى تتطلب سرعة البث بها، ومن أهم مهماته الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والمحافظة على الآداب والفضيلة والأمانة، ومراعاة أحكام الشرع، والإشراف على نظام الأسواق، والمحافظة على حق التراجع عن طريق العامة عند البناء، حتى لا يعوق ذلك نظام المرور، والوفاء فى الديون، والكشف على الموازين والمكاييل منعا للتطفيف، ومنع الغش والفساد فى بيع الأطعمة للناس، ومن التعدى على حدود الجيران. . . .

ونظام الحسبة فى الإسلام كان من وضع الخليفة عمر بن الخطاب، الذى كان يقوم بعمل المحتسب بنفسه فى الأسواق والطرقات. ولكن لفظ الحسبة نفسه لم يستعمل إلا فى عهد الخليفة المهدى العباسى (١٥٨ - ١٦٩هـ). وكان المحتسب يباشر عمله ويفرض العقوبة فى الحال، فقد شوهد الخليفة عمر بن الخطاب يضرب جمالا ويقول له: "حملت جملك ما لا يطيق". وهذا يدل على الفرق بين عمل القاضى وعمل المحتسب، فالقاضى يسمع أقوال المتقاضين والشهود ويدرس القضية ليفصل فيها، بينما المحتسب يرى المخالفة ويوقع العقوبة فى الحال. وهذا معناه الشدة والسرعة فى العمل. وكثيرا ما أسندت الحسبة والقضاء إلى رجل واحد، بالرغم من الفارق بينهما.

الحياة الاقتصادية

نادى العباسيون بالمساواة والإصلاح والقضاء على الفساد الذى استشرى فى العصر الأموى. وحتى يشعر الناس بأن ما نادى به العباسيون حقيقة قائمة فعلا وليست كلاما بكلام أطلق فى موجة الحماس من اجل الوصول إلى الحكم لا أكثر. بدأ الخلفاء العباسيون الأوائل - وبخاصة أبو جعفر المنصور - فى تنفيذ سياسة الإصلاح الاقتصادى بطريقة فعالة، لاسيما منها الإصلاحات الخاصة بالخراج وتنظيم جمعة بأسلوب عادل، وتخفيف الأعباء الملقاة على كواهل الفلاحين، مع رعاية شئون الزراعة والرى، والتجارة وتأمين الطريق، والصناعة وتأمين وتحرير الحرفيين من القيود التى طالما رزحوا تحتها. فأدت هذه الإصلاحات إلى رخاء اقتصادى لا مثيل له فى تاريخ الأمم. ولم تمضى سنوات قليلة حتى صار الخليفة العباسى ينعم بالثروة التى أخذت تتكدس فى خزائنه من مختلف أنحاء تلك الدولة الواسعة الأطراف. كما صار مجتمع بغداد الذى يحيط بالخليفة يعيش الرخاء الاقتصادى ذاته فى الثراء والمال. وقيل أن هارون الرشيد كان يستلقى على ظهره وينظر إلى الغمامة المارة ويقول: "اذهبى حيث شئت - يأتنى خراجك. . . " .

أولا: النظام المالى:

عملت الدولة العباسية منذ البداءة على تحقيق التوازن فى السياسة المالية بين الإيرادات والمدفوعات، فقسمت الميزانية العامة إلى قسمين: قسم الاستخراج ويعنى الإيرادات (المدخول)، وقسم النفقات ويعنى المصروفات (المدفوعات) فهى لذلك حرصت منذ نشأتها على إنشاء "بيت المال" ليقوم على صيانة أموال المسلمين وحفظها والإنفاق منها على وجوه الإنفاق السليمة. مما جعل بيت المال أشبه بوزارة الخزانة أو المالية فى عصرنا الحاضر.

١ - الاستخراج أو الإيرادات:

شكلت: الخراج والجزية والزكاة والفئ والغنيمة والعاشور أهم موارد بيت المال فى الدولة العباسية.

أ - الخراج:

أرهق الأمويين رعاياهم بما فرضوه عليهم من ضرائب، بعد أن خرجوا عن القواعد التى صاروا عليها الخلفاء الراشدون، متبعين نظاما قاسيا فى جميع الأموال، حتى إذا ما وجدوا أى إهمال لدى الجباه وموظفى الخراج أجروا تحقيقا دقيقا معهم أثناء الوظيفة، وعند اعتزالهم الخدمة أيضا.

هذه السياسة أشعرت الناس بثقل العبئ الملقى على عواتقهم، فاستبشر كثيرون خيرا بقيام الخلافة العباسية أملا فى الخلاص وتحسين الأوضاع. فكان أن أخذ العباسيون يعملون على تعديل هذه الأوضاع. وما أن سيطروا على خراسان حتى عمل خالد بن برمك، صاحب الخراش فى البلاد التى يفتحها الجيش العباسى على تقسيط الخراج من الناس، إحساسا منه بما كانوا يعانونه من ظلم فادح وما تحملوا من أعباء جسام.

ولما تولى أبو جعفر المنصور الخلافة وضع نظاما صارما لمراقبة عمال الخراش وردعهم ومعاقبتهم إذا تعسفوا فى جمعهم الخراش. واعتنى المنصور بتنظيم ديوان الخراش مخصصا له مكانا فى بغداد على مقربة منه، محتفظا فيه بسجلات يرجع إليها فى تقديم قيمة الخراش، مراع فيمن يتولى وظائفه من الموظفين الأمانة والدقة والتفقه فى أمور الدين. على أن أهم إصلاح أدخله الخليفة المنصور هو طريقة جباية الخراج، فالخراج الذى كان يؤخذ نقدا على مساحة الأرض سواء زرعت أم لم تزرع، وضع المنصور نظام المقاسمة الذى يقضى بأن يدفع الزراع جزءا من غلة الأرض ويبقى له ما يكفيه، أما المساحة التى لا تزرع فلا يدفع عنها.

وعلى أيام المهد العباسى طبق "نظام المقاسمة على كثير من البلاد الإسلامية

وفقا لنسب معينة دون اعتبار بمساحة الأرض، فمثلا: بلغت نسبة المقاسمة النصف (١/ ٢) على الأراضى التى تروى بالجر (سيحا)، وثلث المحصول على الأراضى التى تسقى بالآلات (بالرش). وقد طبق هذا النظام - نظام المقاسمة - على الغلات الزراعية فقط، أما الأشجار والكروم فبقيتا على نظام المساحة، لكن روعى فى ذلك الخراج حسب بعدها أو قربها من الأسواق.

واستمر العمل بنظام المقاسمة فى جمع الخراج لأنه حقق دخلا ثابتا للدولة واطمئنانا للمزارعين بتجنيهم الأزمات مع استقرار الأمن. لكن هذا لم يمنع الخليفة هارون الرشيد عن مواصلته سياسة الإصلاح الضريبى، فأمر بإلغاء ضريبة العشر التى كانت تجبى من أهل العراق بالإضافة إلى نسبة النصف المقررة بحكم "نظام المقاسمة". وعهد إلى القاضى أبى يوسف بدراسة نظام الخراج ووضع الحلول المناسبة. فألف أبو يوسف "كتاب الخراج" الذى خير كتاب ألف فى موضوعه.

نصح أبو يوسف، فى كتابه "الخراج" الرشيد بمزيد من الرأفة مع الفلاحين. فعدلت نسبة المقاسمة التى وضعت فى أيام الخليفة المهدى بحيث أصبحت خمسين (٢/ ٥) على الأرض التى تروى بالجر (سيحا)، وثلاثة أعشار (١٠/ ٣٠) على الأرض التى تروى بالدوالى، وجمع الثلث من المساحات المغروسة بالنخل والكرم بدلا من تقدير خراجها طبقا لمساحتها كما ألغى الرشيد المبالغ المتأخرة على المزارعين والتى عرفت "بالبقايا" وأوجب الرأفة فى جمعها حتى لا يلحق بالفلاحين أى غبن.

واستمر النظام المالى فى العصر العباسى الثانى على درجة كبيرة من الدقة حتى كان لكل ولاية ديوان للخراج يرتبط بديوان الخراج الرئيسى فى بغداد أو سامراء واهتم الخلفاء بمواعيد جمع الخراج، على أن موعده، كان عيد النيروز عادة.

ب - الجزية:

كانت الجزية من أهم مصادر بيت المال وموارده، وهى تؤخذ من أهل الذمة فرضت الجزية على النصارى واليهود فى الدولة العباسية مقابل حمايتهم والدفاع عنهم، وكانت الجزية تجمع من الرجال القادرين على حمل السلاح بعد أن وزعت عليهم بنسب مختلفة. فيدفع الفقير ١٢ درهما فى السنة والمتوسط الحال ٢٤درهما فى السنة والثرى ٤٨ درهما فى السنة، فوصل مبلغ الجزية بأواخر القرن الثالث الهجرى من ذمى مدينة بغداد فقط مائتى ألف درهم فى السنة. وقد تشدد الإسلام فى جبايتها بناء على أن أحكام القرآن القائل: "قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الأخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون".

ج - المواريث:

ومن موارد بيت المال أيضا "ديوان المواريث" أنشأ هذا الديوان الخليفة العباسى المعتمد. وتجمع من تركة من يموت دون وارث.

د - ضريبة الخمس:

هذه الضريبة تغذى بيت المال مما يستخرج من بطن الأرض وجوف البحر. فهى أخماس المعادن، وما يقذفه البحر أو ما يستخرج منه كاللؤلؤ والعنبر والرسوم الجمركية. هذا إضافة إلى ما يصادر من أموال الأمراء والوزراء وكبار رجال الدولة.

٢ - النفقات أو المدفوعات:

فكما كانت الموارد كثيرة كذلك فإن المدفوعات تعددت على مرافق الدولة ومصالحها كافة، وهى تصرف وفق ما يأتى: أرزاق القضاة والولاة والعمال وسائر الموظفين، تعطى للجند بدلا من مرتباتهم، إضافة عن الإنفاق على كرى الأنهر

والترع وإصلاح مجاريها، وعلى المسجونين وأسرى المشركين من مأكل ومشرب وملبس، ودفن من يموت منهم، وشراء المعدات الحربية. . . .

وأورد هلال بن الصابئ إحصائية طويلة عن النفقات اليومية للدولة العباسية فى أوائل عهد الخليفة المعتضد (٢٧٩ - ٢٨٠هـ) - فبلغت نحو سبعة آلاف دينار أى أكثر من مليونين ونصف مليون دينار سنويا فى الوقت الذى كان مجموع الإيرادات يبلغ حوالى خمسة ملايين دينار فى السنة. أما فى عهد الخليفة هارون الرشيد فقد بلغت الأموال التى تجبى من الضرائب اثنين وأربعين مليونا دينار، ما عدا الضريبة العينية التى كانت تؤخذ مما تنتجه الأرض من محاصيل. وقد بلغت النفقات فى عهد الخليفة المأمون ستة آلاف دينار كل يوم، أى أكثر من مليونى دينار فى السنة.

إن دلت على ضخامة الميزانية، فى كثرة الإيرادات والمصروفات على شئ إنما يدل على رخاء البلاد وانخفاض الأسعار. فقد أورد الخطيب البغدادى فى كتابه "تاريخ بغداد"

أنه سمع من يقول: "رأيت فى زمن أبى جعفر كبشا بدرهم وحملا بأربعة دوانق والتمر ستين رطلا بدرهم، والزيت ستة عشر رطلا بدرهم، والسمن ثمانية أرطال بدرهم. . . وكان ينادى على لحم البقر تسعين رطلا بدرهم ولحم الغنم ستين رطلا بدرهم. . . ".

ثانيا: الزراعة:

اعتنت الدولة العباسية بالزراعة اعتناء كبيرا، لأنها كانت تعطى مردود لخزينة الدولة العامة يقدر بثلاثين بالمئة من الواردات فحفرت الترع والمصارف للمياه وأقامت الجسور والقناطر. فالأرض الواقعة ما بين النهرين - دجلة والفرات - كانت منذ القديم مشهورة بخصبها، فهى لذلك من أخصب أراضى الدولة العباسية الأمر الذى جعل الحكومة تهتم بالإشراف عليها إشرافا مباشرا، ومد شبكة من

الترع والمصارف فيها حتى كثـرت بها المزارع والبساتين وعرفت بأرض السواد لكثرة ما فيها من الشجر والزرع والخـضرة. وكانت غالية الأرض تروى من ماء الفرات، فى حين جعلت مياه دجلة لرى الأراضى الواقـعة على شاطئه الغربى وعلى ساحل الخليج وبذلك أمكن توفير الماء لـرى جميع الأراضى الواقعة بين الصحـراء العربية وجبال كـردستان وتحويلها إلى مـزارع خضراء تدر الخير علـى أهلها والدولة. أما أرباض بغداد فامتدت إليها جميعا القنوات، مما مكن أهلها من غرسها بالنخيل بعد أن كانت زراعـته مقـصورة على البـصرة والكوفة والسـواد. كذلك كـثرت العناية بزراعة البساتين والحدائق وتنسيقها.

١ - الحاصلات الزراعية:

ومن أشهر المنتـجات الزراعية فى جمـيع أنحاء الدولة العباسيـة حيث كانت تتوفر المياه، الحنطة. أما الذرة فقد اقتصـرت زراعتها على أجزاء معينه مثل جنوب شبه جزيرة العـرب. وكذلك الشعير والأرز والنخيل والزيتـون وقصب السكر. أما الفواكه فأشهرها الكومة (العريش) التى غـرست فى جميع أنحاء الدولة العباسية، والنارنج الذى جلب من الهند وزرع بـعمـان والبصـرة والعراق والشـام، لكنه لم يحتفظ برائحته الطيبة ولونه الحـسن الذى يوجد فيه بأرض الهند. والتفاح فى بلاد الشام، والخـوخ بمكة وكثـرت فى العراق زراعة البطيخ والرمـان أيضا إضـافة إلى زراعة التمور والأرز والشعير والذرة.

٢ - ديوان الماء:

ذكرنا أن الدولة العـباسيـة اعتنت بعمليـات الرى فنظمهـا على طريق الترع والسدود، فـخصصت الدولة جـماعـة من الموظفين أطلق عليهم اسـم المهندسين للمحافظة على هذه السدود خشية تسـرب الماء وبالتالى انفجارها وانبثاق الماء منها. وجعل العباسيون ماء الـرى ديوانا أطلقوا عليه اسم "ديوان الماء". كان يشرف عليه موظف كبير يعاونه أكثر من عشرة آلاف عامل. كذلك عنوا بإقامة السدود المقاييس

على الأنهار لمعرفة مقدار ارتفاع الماء وانخفاضها والاستئناس بذلك فى فرض الضرائب.

٣ - الحيوانات:

اهتم المزارعون زمن الدولة العباسية بتربية الأبقار والجاموس للاستفادة من ألبانها واستعمالها فى حراثة الأراضى. إلا أنهم اعتقدوا أن لحم البقر ضار بالصحة، لذلك فضلوا لحم الجاموس عليه، لكن ذلك لم يمنع من الاستفادة من ألبانها. وذكر ابن قتيبة أن اللحم المجفف (القديد) فى الشمس كان معروفا ويقبل الناس عليه بكثرة.

٤ - إقطاع الأرض:

أقطع الخليفة أبو جعفر المنصور بعض أعيان دولته قطائع من الأرض ببغداد يعمرونها ويسكنونها ويحصلون على غلتها مكافأة لهم على ما قدموه من خدمات. وسرعان ما عمرت هذه القطائع واتسع نطاقها وازدحمت بالسكان. وانتشر هذا النظام فى العصر العباسى الثانى حين تولى الأتراك حكم الدولة العباسية، فكانوا يقطعون الولايات على أن يؤدوا لدار الخلافة مبلغا من المال، يحدد باتفاق خاص بين صاحب الإقطاع والحكومة. وقد أفتى الفقهاء أن يكون الخراج الذى يجمع عن الأرض المقطعة العشر وتعود الأرض المقطعة إلى الحكومة فى حالة مصادرة أصحابها أو عند تطرق الخراب إليها.

- عيوب نظام الإقطاع:

لم يخل نظام الإقطاع من عيوب، ذلك أن المقطع كان يعمل دائما على الإثراء وجمع المال، ولا يتردد فى إرهاق الآهلين وإثقالهم بالضرائب المختلفة، حتى يستطيع أن يؤدى إلى الحكومة ما عليه من مال الخراج ويحتفظ لنفسه بما زاد عن ذلك. فى حين يعود الغبن على الأهالى الذين فلما تصل أصواتهم إلى مسامع السلطة.

ثالثا: الصناعة:

ازدهرت الصناعة ازدهارا كبيرا فى كافة أرجاء الدولة العباسية بسبب وفرة موارد الثروة المعدنية، إذ استخرج الفضة والنحاس والرصاص من مناجم فارس وخراسان كما استخرج الحديد من مناجم قرب بيروت، فى حين استخرج الملح والكبريت من شمال فارس، والقار والنفط من بلاد الكرج، والذهب من المغرب ومن بلاد النوبة والبحر الأحمر وبقيت أفريقيا مصدرا رئيسا لتوفير الخشب والعاج وأهم الصناعات: الزجاج، والخزف والمنسوجات والفخار والصباغة والدباغة والحدادة والأحذية إلخ..

١ - الزجاج والخزف:

وراجت صناعة الزجاج والخزف فى بلاد الشام بصفة خاصة، فأنتجت نوعا من الزجاج المنقوش بالذهب على درجة كبيرة من الإتقان، وكثر إنتاج الزجاج الملون المطلى بالميناء الذى تنتجه البلاد فتم تصديره إلى جهات كثيرة من العالم. وقد ورث المسلمون صناعة الزجاج عن الفينيقيين والسوريين والمصريين. وصنع فى العراق وفارس البلور المصفى لأول مرة. ويحتفظ اللوفر والمتحف البريطانى بتحف فاخرة من سامراء والفسطاط: من أقداح، وآنية وقناديل موشاة بألوان براقة ومغطاة بطلاء ملون بألوان الطيف أو ببلاتين معدنى ذى ألوان متغيرة كقوس القزح.

٢ - المنسوجات:

وقامت مصانع النسيج فى فارس والعراق والشام ومصر. فاشتهرت الكوفة بكوفياتها الحريرية، وامتازت دمشق بأقمشتها الحريرية التى اشتهرت باسم "الدمقس" كما امتازت مدن خراسان وفارس بصناعة البسط والستور والمنسوجات الصوفية على اختلاف أنواعها. واشتهرت بصناعة النسيج من مدن مصر دمياط ودبيق التى نسبت إليها الثياب الدبيقية فضلا عن تنبس التى كانت تصدر وحدها إلى العراق ما قيمته ثلاثين ألف دينار سنويا. وكان لمصر المقام الأول فى إنتاج

المنسوجات الكتانية على حين كثرت صناعة القطن فى أقاليم المشرق، وهذا ما جعل الثعالبى يقول: أن القطن لخراسان والكتان لمصر. وأنشأ العباسيون دورا للطراز فى أهم المدن الفارسية. واشتهرت الثياب فى ذلك العصر بفضل ازدهار صناعة النسيج ومنها: الثياب العتابية المصنوعة من الحرير، المنسوبة إلى عتاب أحد أحياء بغداد، والخسروانى وهو من الحرير أيضا وينسب إلى خسروشاه أحد ملوك الفرس، والقلمونى وهو نوع من القماش ذو ألوان براقة تتلألأ إذا انكسرت عليها أشعة الشمس وكان يصنع فى دمياط وتنيس خاصة والتسترى من الحرير وينسب إلى مدينة تستر فى فارس، والنصفية وهى ثياب تصنع من الحرير والقطن. وصنعت فى شيراز أبراد (نوع من الثياب) عرفت بالشيرازية وفى بخارى بالثياب البخارية.

٣ - الورق:

واهتم العباسيون بصناعة الورق، فأنشئوا لهذه الصناعة مصانع فى عدة مدن وجلبوا لها الأساتذة والصناع من مصر التى اشتهرت بصنع الورق من نبات البردى منذ القديم والذى استمر مستخدما فى صناعة الورق حتى العصر العباسى الثانى، عندما حل محله الكاغد الذى انتقل من الصين إلى العالم الإسلامى فى القرن الرابع الهجرى. واشتهرت سمرقند بصناعة الكاغد، حتى قيل إن كواغد سمرقند عطلت قراطيس مصر ومن سمرقند انتشرت صناعة الورق إلى بغداد حيث أسس الفضل بن يحيى البرمكى سنة ١٧٨هـ/ ٧٩٤م. أول مصنع للورق. وانتقلت صناعة الورق إلى أوربا فى أواخر العصور الوسطى عن طريق الشام. فأطلق عليه الأوروبيون اسم «الصحائف الدمشقية».

٤ - التعدين والصناعات الأخرى:

وقطعت صناعة المعادن شوطًا بعيدا من التقدم، فاشتهرت بها مصر، كما اشتهرت بغداد بالصياغة التى نبغ فيها الفرس من حيث الدقة والجمال، فكانوا

يرصعون الزجاج بالجواهر، ويكتبون عليه بالذهب المجسم، ويصنعون للملوك أقداحًا تبهر الأبصار. ويجعلون على الأوانى صورا لطيور تطير وحيوانات تجرى وغيرها.

وقد جعلت الدولة العباسية لكل حرفة فى المدن الكبرى سوقًا خاصة، كسوق الحدادين وسوق النجارين وسوق البزازين.. إلخ. ويقال أنه كان فى بغداد وحدها أربعة آلاف محل لصنع الزجاج، وثلاثون ألف معمل لصنع الخزف. ومهما يكن فى هذا القول من مبالغة، فهو يدل على مدى نشاط الصناعة فى العصر العباسى وأن ننس لا ننسى الصناعات الخفيفة الأخرى مثل استخراج العطور، فاشتهرت مدينة جور (جنوبى فارس) فى صناعة ماء الورد وتصديره إلى المغرب والأندلس ومصر وبلاد الهند والصين أو صناعة الحصر العبادانية وصناعة الطواحين المائية التى اشتهرت مدينة الموصل بصناعة المطاحن المعروفة بالعربات المصنوعة من الخشب والحديد.

رابعًا: التجارة:

اتسعت رقعة الدولة العباسية إلى أن شملت أرضا واسعة ومناطق غنية بالمعادن والصناعات النسيجية والمنتوجات الزراعية الأمر الذى أدى إلى ازدهار التجارة الداخلية لتبادل المنتوجات والسلع بين مختلف المناطق. هذا إضافة إلى أن موقع الدول العباسية جعلها مركزا تلاقى القوافل التجارية القادمة من الشرق إلى الغرب والعكس. فعبرها كانت البضائع تمر إلى الأسواق التجارية العالمية فضلا عن البضائع التى تصدر منها أو ترد إليها من مختلف أنحاء العالم.

هذا ما جعل الدولة العباسية تهتم بالتجارة وتسعى إلى ازدهارها، فمهدت لها الطرق، وحفرت الآبار، وبنت المحطات للاستراحة على امتداد طرق القوافل، وأنشأت المنائر فى الثغور البحرية. ولم تهمل توفير الأمن وحماية التجار ومتاجرهم بالضرب بشدة على أيدى العابثين وقطاع الطرق واللصوص، وبنوا الأساطيل البحرية لحماية السواحل من قراصنة البحر.

١ - الطرق التجارية:

كانت الطرق التجارية الأساسية بين الشرق والغرب تمر كلها تقريرا بأراضى الدولة العباسية منها:

١ - طريق البحر الأحمر والقلزم ومنها تحمل البضائع إلى القاهرة حيث تحمل فى النيل إلى الإسكندرية.

٢ - طريق المشرق فى بغداد فإنطاكية على البحر المتوسط.

٣ - طريق الشمال مرورا ببلاد الروس فبحر قزوين ثم مرو وسمرقند ومنها إلى الصين.

٤ - الطريق البرى عبر شمال أفريقية فى مصر والعراق وفارس، ومنها إلى الهند والصين.

٢ - السلع والعلاقات التجارية:

سيطر اليهود على التجارة بين الشرق والغرب فعرفوا للمسلمين باسم "اليهود الراذانية" لأنهم وافدون من نهر الرون، هذا فى الوقت الذى لم يهمل العرب أمر التجارة فأسهموا فيها إسهاما وافرا، وقاموا بأوسع نشاط بحرى حتى وصلوا عن طريق البحر إلى الهند والصين فكانت لهم جاليات فى كثير من مدن جنوب وشرق آسيا، مما أوصل الإسلام إلى تلك الجهات. وقد جلب العرب التوابل والعطور والحرير من الهند والصين. وانتظمت العلاقات التجارية بين بلاد اليمن والحجاز والحبشة ومصر وآسيا الشرقية. كما كان زمرد الهند ينقل إلى الغرب عن طريق عدن ومكة، وكان أمراء الشرق الأقصى يطلبون العاج وسن الفيل من الحبشة بواسطة التجار العرب، فصارت عدن سوقا كبيرة لحاصلات الشرق. ثم ما لبثت بعض المدن العربية أن ذاعت شهرتها التجارية كبغداد والبصرة والإسكندرية.

٣ - المراكز التجارية:

فكر الخليفة هارون الرشيد فى شق قناة تصل ما بين البحرين الأحمر والمتوسط إلا أن البعض أخافه من أن الروم قد يسلكون هذه القناة التى توصلهم إلى الحرمين فى الحجاز مما يمكنهم من طعن المسلمين فى مقدساتهم وقطع طريق الحج فعدل عنها. أما الخليفة المعتصم فقد حصن إنطاكية على البحر المتوسط حتى غدت من أهم المراكز التجارية ببلاد الشام. هذا فضلا على الفرما والقلزم والإسكندرية ودمشق حيث شهدت جميعها نشاطا تجاريا واسعا. أما بغداد فقد صارت أكبر الأسواق العالمية التجارية، تتحدد أثمان كثيرة من السلع فيها وزاد من أهميتها كونها حاضرة الخلافة العباسية وملتقى كثير من الطرق التجارية.

٤ - الأسواق التجارية والعملات:

اعتاد المسلمون على إقامة الأسواق فى أوقات معينة بالمدن التجارية الهامة. ومن المدن التى اشتهرت بأسواقها فى ذلك العصر العباسى بغداد والبصرة. وجرى التعامل غالبا فى هذه الأسواق بالعملة الذهبية وهى الدينار.

واستخدم المسلمون أيضا الشيكات، وعنهم أخذت أوروبا استخدم الشيكات فيما بعد. وإلى ذلك العصر أيضا ترجع نشأة المصارف لحفظ الأموال وتيسير المعاملات التجارية فازدهرت الحياة الاقتصادية وانتعشت الأمر الذى أدى إلى تحسين الأوضاع المعيشية وبالتالى الحياة الاجتماعية. وقد شاع التعامل بالدرهم الفضى فى عهد المنصور، الذى يساوى ٢٥ فلسا بونزيا. ثم أخذ الدينار المغربى يغزوا أسواق الخلافة العباسية فيتم التعامل به جنبا إلى جنب مع دراهم الشرق حتى نهاية القرن التاسع الميلادى إذ توحدت العملة وأصبحت وحدتها الأساسية الدينار الذى كنت أسعاره فى ذلك الزمان خاضعة لتقلبات خطيرة، إذ يرتفع سعر الدينار كل عام فى موسم الحج. على أن التلاعب فى عيار الذهب لجأت إليه حكومات العصور العباسية محاولة التخلص من الأزمات المالية. وأخيرا كان الدينار يساوى ١٤درهما. والدرهم يساوى ٦دوانق والدوانق١٢ قيراطا.

الحياة الاجتماعية

أظهر ازدهار ورواج الحياة الاقتصادية فى الدولة العباسية أثره على الحياة الاجتماعية. فظهر ذلك جليا فى التقاء كثير من الأجناس والعناصر والطوائف الدينية وغير الدينية فى العراق قلب الدولة. وهذا الخليط البشرى الكبير، ذو الدماء واللغات والعادات والتقاليد والآراء والمذاهب المتعددة، أكسب الدولة العباسية لونا خاصا من الحياة الاقتصادية التى تلتقى حينا وتتنافر أحيانا، كما يظهر من الصورة التى نحاول إظهارها فيما يأتى:

١ - عناصر السكان:

أ - العنصر الفارسى:

تميز العصر العباسى الأول بطغيان العنصر الفارسى فى المجتمع لقيام الخلافة على أكتاف الفرس. ولم يلبث هؤلاء أن تركوا بصماتهم واضحة فى هذا المجتمع وبخاصة ما يتعلق بمظاهر الترف والثراء مثل بناء القصور وتعدد الأزياء وظهور ألوان فارسية جديدة من الأطعمة. هذا إضافة إلى مجالس اللهو والغناء والشراب التى بالغ فيها بعض الخلفاء العباسيين فى العصر الأول تقليدا للعادات الفارسية. وظهر واضحا التأثير الفارسى أيضا فى ملابس الرجال كاستعمال القلانس والأقبية والسراويل والجوارب، بل تعدى ذلك إلى أزياء النساء، فأكثرت من استعمال الحلى والمجوهرات والأحزمة. وذهب العباسيون إلى أبعد من ذلك بمشاركتهم الفرس فى أعيادهم وخاصة عيدى النوروز والمهرجان.

ب - العنصر التركى:

غلب العنصر التركى على المجتمع العباسى بعدما تكاثر عددهم منذ بداءة خلافة المعتصم بالله (٢١٨ - ٢٢٧هـ/ ٨٣٣ - ٨٤٢م) وبفضل ما عرف عنهم من شجاعة وقوة بدنية، استطاعوا التغلب على بقية عناصر المجتمع العباسى وعاثوا

فيها فسادا يمصادة أموال النـاس وإشاعة الفوضى بينهم بتراكضهم وهم على ظهور الدواب فى شوارع بغـداد وطرقها المكتظة بالناس، فـيصدمونهم وتقع المشـاجرات الدموية أحيانا. ولم يسلم المجتمع العباسى فى العصر الثانى من أثر العنصر التركى الأنثوى إذ ازداد عدد الجوارى التـركيات اللاتى امتلأت بهن قصـور الخلفاء الأمراء ورجال الدولة. الأمر الذى أدى إلى ترك بصماتهم واضحة فى فن التجميل وابتكار الأزياء والتأنق فى الملبس والمأكل والمشرب. هذا إضافة إلى ما اشتهرت به الجوارى التركيات من جمال مع بياض اللون وحلاوة العـيون التى أقصر من وصفها الكتاب المعاصرون.

ج - العنصر العربى:

لم يقض طغـيان النفـوذين الفارسى والتـركى على أثر العنصر العـربى فى المجتـمع العباسى. ولم يفقـد العنصر العربى كـثيرا من امتـيازاته لانتشار القـبائل العربية فى مخـتلف أنحاء العالم، فضلا عن القبائـل التى بدأت تهاجر إلى العراق فى القرن الرابع الهجرى. ومن هؤلاء فريق من البدو الذين تركوا أثر سيئا فى الحياة الاجتماعـية لنشرهما الاضطرابات والاعتداء على المدن والقرى ونهـبها إلى جانب تمسكهم بروح العصبية القبلية بكل مـا فيها من المساوئ فى هذا الوقت كان العرب المتقـدمون أمثـال بنى حمدان فى الموصل وحلب فكـانوا عنصرا طيبـا من عناصر الاستقرار الاجتماعى فى الدولة، وأسهموا إلى حد كبير فى تنمية النشاط الحضارى والعمرانى.

وسـواء أكان العـرب - بدوا أو متـحضـرين - فإن تأثيـرهم كان قـويا فى المجتمع العـباسى بوقوفهم مـوقفا عدائيا من الزنادقـة، ومحافظتهم على التـقاليد العربية الإسلامـية. وكان لوقوف المرأة العربية مـوقفا مشرفا بالمحافظـة على كيانها وشرفهـا وعدم الانجرار وراء الشهوات والتبـذل كالجوارى الفارسيات والتـركيات. وهذا الموقف العربى أدى إلى الحد من تيار الفساد والتـدهور الاجتماعى فى العصر العباسى.

٢ - الطوائف الدينية:

أ - المسلمون:

تعددت الطوائف الدينية فى المجتمع الإسلامى ومنها: المسلمون، أهل الذمة، المجوس وغيرهم. . .لكن الدولة بوصفها دولة إسلامية وغاية الفتوح كانت نشر الإسلام وتعاليمه، فإن الغالبية العددية والسيادة الاجتماعية كانت للمسلمين. وعلى هذا الأساس كانت الإسلام ومثله وتقاليده هى المهيمنة على المجتمع العباسى بوجه عام.

وبقيت فى هذا المجتمع لآل البيت المكانة الخاصة فيه، لأن الدعوة العباسية قد قامت فى البداءة على أساس الدعوة لآل البيت، لذلك أطلق عليهم اسم الأشراف الذين شكلوا طبقة مرموقة شملت بنى هاشم من العباسيين والعلويين، لكن العباسيين كانت لهم المكانة الأولى بوصفهم حكام الدولة فاحتفظوا لأنفسهم بامتيازات لم يشاركهم فيها أحد، فى حين ضعف العلويون لوقوفهم الموقف العدائى من العباسيين فتعرضوا إلى ضربات قاسية على أيديهم. واستمر نقيب الأشراف يرعى شؤون بنى هاشم من العباسيين والعلويين يعاقب كل من يخرج منهم عن حدود اللياقة إلى نهاية القرن الرابع الهجرى إذ أصبح لكل من العلويين نقيب وللعباسيين نقيب أيضا. وكانت وظيفة النقيب ترسم بتقليد من الخليفة على أن يجوز الجمع بين وظيفة النقابة ووظيفة القضاء أو غيرها.

ثم تفاعلت الخلافات المذهبية بين المسلمين العرب فانقسموا إلى شيعة وسنة، وتأججت نار الحرب القديمة بينهما - الخلاف بين العلويين والأمويين - حتى أنه صار لكل فريق منهم أعياده وتقاليده، فبالغ فريق فى إحياء تلك الأعياد والتقاليد تعصبا لمذهبة أو نكاية فى الفريق الآخر، الأمر الذى أضعف من تماسك المجتمع الإسلامى فى العصر العباسى.

وإذا كانت الخلافة العباسية قد تأججت فيها نار الخلافات المذهبية بين

المسلمين العـرب، فإنهـا عرفت التفـرقة بين المسلمين العـرب والمسلمين من غـير العرب (الموالى) فـبقى التباعـد بينهما على أشـده حتى عهد المأمـون إذ لم يحقق للموالى قبل خلافة المأمون الاندماج بالعرب فى الإحتفاظات العامة.

ب - أهل الذمة:

وهم أهل الكتاب من اليهود والمسيحـيين الذين استطاعوا الوصول إلى بعض وظائف الدولة الكتابية إلى جـانب عمل البعض منهم كأطباء وصيـارفة ومهندسين وغير ذلك. ولم تتدخل الدولة فى حياتهم الخـاصة وإن تدخلت أحيانا فى حياتهم الدينية فقـد كان تدخلها محدودا وفى ظروف خـاصة ومعينة كما حـدث فى عهد المتوكل. فـقد أمر المتوكل بهـدم بعض الكنائس المنشأة بعد الإسـلام. ونهاهم عن الوظيفة والأعمـال العامة وعن إظهار شعائرهم الدينية كالصلبـان وغيرها، وجعل على أبوابها صور شياطين من خشب. وفرض عليهم أن يرتدوا الطيالسة العسلية، وأن يشدوا الزنار على خصورهم، وأن يرقعوا لبـاس رجالهم برقعتين تخالفان لون الثوب ولون الواحدة غـير لون الأخرى، ونهاهم عن التعليم فى كـتاتيب المسلمين وأمر بتـسوية قبورهم مع الأرض لئـلا تشبه قـبور المسلمين. وكان يقـوم، برعاية شئـون أفراد كل طائفة، رئيس دينى يلى منصـبه بعد من الخليـفة العبـاسى. وقد أعفى أفراد الطائفتـين من الخدمة العسكرية مقابل دفعـهم الجزية التى فرضت على الرجال القـادرين على الحرب، بينما أعفى من تأديتـها النساء والأطفال والـشيوخ والمرضى والعاجزين والرهبان.

وقد قويت الروابط الاجتماعية بين المسلمين وأهل الذمة فى العصر العباسى إذ شارك كل طرف الآخر فى أعياده واحتفالاته. كـمشاركة للمسلمين لأهل الذمة بعيد الشعانين. فـتظهر الوصائف فى احد الشعائن بقصر الخلافـة ببغداد، متزينات فى ثياب جـميلة، وفى أعنـاقهن صلبان مـن الذهب، وبأيديهن قلوب من النخل (رأسها الـلين) وأغصان الزيتون وشـارك المسلمون النصارى فى خمـيس الأسرار، وعيد الفصح وعيد العنصرة، وعيد القـديس أشمونة، وعيد البربارة، وعيد الميلاد

وعيد الغطاس. وجارى أهل الذمة المسلمين فى ملبسهم باستثناء لباس الرأس الذى اقتصر فيه التعمم على المسلمين وكذلك الزنار كما تبادل الفريقان الهدايا والمأكولات فى المناسبات الدينية وغير الدينية. إلا أن العلاقات الاجتماعية توطدت بين المسلمين وأهل الذمة بزواج المسلم من أهل الكتاب دون أن تجبر الزوجة على ترك دينها والدخول فى الإسلام ولم يسمح للكتابى بالزواج من مسلمة. واقتصر التغيير فى الدين على الدخول فى الإسلام.

ج - الصابئة والمجوس:

اشتمل المجتمع العباسى أيضا على طائفة الصابئة أى عبدة الكواكب، وطائفة المجوس أو عبدة النار، ولما كان هؤلاء أقليات ضئيلة ليس لهم تأثير فعال فى المجتمع، يعيشون فى شبه عزلة يحتفظون بتعاليم عقائدهم السرية ولا يختلطون بغيرهم ولا يصاهرون مخاليفهم فى الدين، فقد ناهضهم المسلمون العداء بسبب تعاليمهم المنافية للشرع والأخلاق. ومع هذا فقد سمح لهم بمباشرة أعمالهم الحرة فبرع الصابئة فى بعض الصناعات كالنقش على الفضة، ونبغ منهم أطباء مشهورون مثل: ثابت بن سنان، وثابت قرة واشتهر من كتابهم هلال بن الصابئ، كما اشتهر فى علم الفلك أبو عبد الله البتانى واحتفلت الدولة العباسية ببعض أعياد المجوس مثلا: المهرجان والنوروز.

٣ - طبقات المجتمع:

يضم المجتمع العباسى عدة طبقات، فيأتى فى أعلى الهرم السكانى الحكام ثم يليهم العلماء والتجار أخيرا العامة.

أ - الحكام:

وتشمل طبقة الحكام الخلفاء والوزراء والقواد إلى جانب أهل الخلفاء ورجال الحاشية. وقد سبقت الإشارة إليهم فى كلامنا على نظام الحكم.

ب - العلماء:

تبوأ العلماء مكانة مرموقة فى المجتمع العباسى. سواء لدى الخلفاء ورجال الدولة أو لدى التجار والعامة. فقد تميز العصر العباسى بتشجيع العلم والعلماء والنهوض بالعلوم والآداب فيروى عن أبى معاوية العالم "الضرير" أنه قال: أكلت مع هارون الرشيد - أمير المؤمنين - طعاما يوما من الأيام، فصب على يد رجل لا أعرفه فقال هارون الرشيد: يا أبا معاوية تدرى من صب على يدك؟ قلت لا قال: أنا، قلت أنت يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم إجلالا للعلم. فعاش غالبية العلماء فى العصر العباسى فى رغد من العيش، وتميزوا فى المجتمع بزيهم ومظهرهم الخاص. وكان لهم تأثير كبير فى المجتمع بما بثوه من مثل اجتماعية وخلقية ودينية وبسبب تصديهم للمنكر ومقاومتهم للانحرافات الاجتماعية التى كانت تظهر من وقت لأخر. وقد بلغ ببعضهم التهاون والاستهتار إلى درجة انتقاد تصرفات الحكام، وعملوا على تحريض العامة ضد تصرفات الحكام الأمر الذى كان أثره فى الأوضاع العامة للدولة العباسية.

ج - يأتى فى المرتبة الثانية بعد العلماء التجار:

الذين جمعوا ثروات كبيرة بسبب ازدهار الدولة العباسية وانتعاش عمرانها. فكانت منهم فئة عاشت فى المدن الكبرى اقتصر عمل أفرادها على التعامل بالسلع الثمينة كأنواع الرقيق الممتاز والمجوهرات... وارتبط عمل هذا الفريق من التجار أيضا بقصر الخلافة والوزراء والقواد أو رجال الدولة ارتباطا مباشرا فجمعوا الثروات الكبيرة التى استشارت مطامع الحكام فيهم فتعرضوا للمصادرات فى العصر العباسى أكثر من مرة.

أما صغار التجار والباعة فكان اتصالهم أقوى بعامة الشعب، وظلوا من ناحية وضعهم الاجتماعى أقرب إلى العامة منهم إلى الفئة الممتازة فى الدولة. وكانت أحيانا كثيرة ثورة بعض التجار الكبيرة سببا فى نزوع أصحابها إلى التحلل من آداب المجتمع وتقاليده، ويحبون حياة فيها قدر كبير من الاستهتار والمجون.

د - الحرفيون والصناع:

يؤلف الحرفيون والصناع فئة نشطة فى المجتمع العباسى على اختلاف عناصرهم وطوائفهم، لكن هذا لم يمنع من تكتل أفراد كل صنعة أو حرفة فى سبيل تنظيم مصالحهم المشتركة من ناحية والدفاع عن تلك المصالح من ناحية أخرى. عاش معظم هؤلاء معيشة متوسطة فى المدن، لا هم بالأغنياء الموسرين، ولا هم بالفقراء المعدمين. ومن ضاقت به الحال أحيانا ساهم بدور فعال فى الحركات التى قامت ضد الحكومة أملا فى تحسين أوضاعهم.

هـ - الغوغاء والعامة:

اكتظت المدن فى العصر العباسى، وخاصة بغداد - بجموع من الغوغاء من أجناس وأديان مختلفة. أطلق على هؤلاء اسم العامة. ونظرا لكثرة عددهم فقد كانوا مصدر فساد واضطراب فى المجتمع مما حدا بالحكومة إلى تملقهم أحيانا وتحسن إليهم اتقاء لشرهم. وظهر الشطار والعيارون من منطقة العامة الذين تميزوا بحركة ثورية ضد الحكام استطاعوا إنشاء تنظيم عسكرى يخضع لقيادة موحدة وتنظيم مدنى يرعى أمورهم الخاصة. ولكن سرعان ما احترف بعض أفراد هذه الجماعة السرقة فكانوا مصدرا للفوضى فى الدولة وشاركوا فى الحركات الثورية ضد الخلفاء والحكام وعندما تتردى الأحوال، وترتفع الأسعار وتقل الأقوات حتى الخبز يندر وجوده فكان الناس يلجئون إلى أكل الموتى والحشيش والجيف وروث الحمير عدا عن الذين يموتون بسبب المرض.

فى الوقت الذى كثر فيه الشطار والعيارون فى المدن، انتشرت جموع الفلاحين والرعاة فى الأرياف والبادية. وبالرغم من عناية العباسيين بأمور الزراعة والرفق فى جمع الخراج وتحرير الفلاحين، من القيود التى تكبلهم، فقد ظل الفلاح فى ذلك المجتمع يحيا حياة ذليلة، ويعيش فى وضع اجتماعى تعيس، كان الفلاح فيه أقرب إلى وضع أقنان الأرض أو العبيد، منهم إلى أوضاع الفلاحين

الأحرار. أدى هذا الوضع بالفلاحين إلى القيام بالثورة حينا واعتناق بعض المذاهب الخارجية أحيانا أخرى.

٤ - حياة القصور:

أ - قصور الخلفاء:

اتجه كثير من الخلفاء العباسيين - تحت تأثير النفوذ الفارسى من جهة والثورة الطائلة التى رأوا أنفسهم غارقين فيها من جهة أخرى - نحو بناء القصور العظيمة، وتأثيثها بفاخر الأثاث والرياش. ولم يلبث أن حذا الوزراء والأمراء والقادة وكبار رجال الدولة حذو الخلفاء، حتى أصبحت القصور سمة من سمات العصر العباسى البارزة. وإن نزع بعض الخلفاء نحو التدين والخير، ومالوا إلى حياة البساطة، ومن هؤلاء المهتدى والمتقى فإن الغالبية نزعت إلى حياة الترف، حتى أصبحت قصور الخلفاء العباسيين فى بغداد محور كثير من القصص الذى امتزجت فيه الحقيقة بالخيال. هذا وبعد الخليفة المهدى أول الخلفاء الذين بدأوا بحياة الترف والإسراف الواسع فبدأ الخلفاء باستكثار الخدم فى قصورهم فكان أول من قرب الخدم، واستكثر منهم الأمين بن الرشيد حتى وصلت أعدادهم إلى ١١ ألف خادم من الروم والسودان فى عهد المقتدر بالله.

وما أن صارت سامراء حاضرة الخلافة العباسية فى عهد المعتصم بالله، حتى استأنف الخلفاء العباسيون فيها بناء القصور، فقد بنى الخليفة المتوكل وحده تسعة عشر قصرا فى سامراء، وشق الترع والقنوات لتصل المياه إلى قصره وبساتينه وحدائقه. وصار يجلس وسط منشآته الضخمة التى أقامها لنفسه فى حاضرته ويقول: "علمت الآن أنى ملك". دون أن يدرى أنه سيقتل بعد تسعة أشهر من تصريحه بهذه العبارة. ولقد أفاضت المصادر التاريخية من وصف هذه القصور العباسية، وما كان فيها من برك مزينة بالفضة والذهب والجواهر، وجدران محلاة بالفسيفساء والرخام وأسرة من الذهب وستور من الديباج وبسط فاخرة ذات ألوان

ونقوش جـذابة. إن دل هذا على شيء إنما يدل على مـدى ما بلغه بعـض الخلفاء العباسيين من ترف ونعيم.

ب - قصور الأمراء والقادة:

حذا الوزراء والأمـراء والقواد حذو الخلفـاء فى بناء القصـور وتزيينها بأروع الأثاث والرياش، وقد أسـهبت المصـادر التاريخيـة أيضا فى وصف تلك القـصور وخاصة قصـر معز الدولة بن بويه وما كان يحتويـه من أثاث ورياش وما كان عليه من فخامة وترف.

ج - حياة البذخ داخل القصور:

عاش الخلفاء العباسيون فى قصورهم عيشة تتصف بالبذخ والترف لارتدائهم أفخر الملابس المصنوعـة من الأقمشة الموشاة بالذهب والفضـة والمرصعة بالجواهر، ولما كان يجرى فيهـا من نشاط واحتفالات فى المناسبات السعـيدة وما كان يقام من مجالس اللهو والغناء والموسيقى. . . . إلخ.

- فالنسـاء داخل القصـور كن تفنن فى اختـيار الأزياء الثمـينة ذات الألوان المتـباينة المحـلاة بخـيط الذهب والجـواهر، وعلى رؤوسـهن العصـائب المرصعة بالدر والياقوت والأحجار الكريمة، مع التزين بالقلائد والأكاليل والتيجان والمناطق أو الخلاخل الثمينة.
- أما فى حفلات الزواج والختان التى كانت تجـرى فى العصور العباسية من حين لآخـر إلى آخر وفى المناسبـات السعيـدة الأخرى، فقـد تمد موانى مملوءة من الذهب الخالص مـرصعة بأصناف الجواهر، والفـراشون يأتون بزنانيل مملوءة بدراهم ويصبونها بين أيدى المدعـويين وهم يصيحون: "إن أميـر المؤمنين يقول لكم: ليـأخذ من شـاء، ما شاء" ومن الأمـثلة على ذلك زواج بوارن، وزواج أسماء بنت خمـارويه بن أحمد بن طولون من الخليفة العـباسى المعتضد الذى قصـد من وراء هذا الزواج أضعاف حكم

(خمارويه) مصـر وإرهاق خزينته. كما أن زواج أمير الأمـراء محمد بن رائق قد كلفه خمسة عشر ألفا من الدنانير.

وكان بقـصر الوزير على بن الفرات مـطبخان: مطبخ للخـاصة، ومطبخ للعامة، وهذا الأخيـر كانت الأطعمة تحضر فيه للمـقيمين بالدار من الكتـاب والبوابين والموظفـين وغيـرهم. وكان فى القـصر خـبازون يخبزون الخبز ليلا ونهارا، والحلوانيين يعملون الحلوى باستمرار. ويذبح فى كل يوم تسعون رأسـا من الماعز وثلاثون جديا إضافة إلى عدد كـبير جدا من الدجاج.

- وتعددت المجـالس فى القصـور كما ذكـرنا فى العصـر العبـاسى ومنها: مجالس الغناء والطرب والموسيقى، ومجالس القصاص ومجالس الوعاظ. وقـد تطورت الموسيـقى وكذلك فن الغـناء فى مجـالس الطرب والغناء نتيـجة لتأثير العـباسيين بالفـرس والروم من جهة ولانتشـار الجوارى فى المجتمع العباسى مـن جهة أخرى، ولتقدير الخلفاء للمغنيـين وتشجيعهم بالمنح والهـدايا من جهـة ثالثة. واشـتـهر من المغنيـين فى ذلك العصـر إبراهيم الموصلى وإسحق ومـخارق، وزنام الزامر وعريب، أمـا الجوارى اللاتى اشتهرن بالعزف على الآلات الموسيقـية فعددهن كبير. نذكر منهن على سبـيل المثال لا حصر شـاجية جـارية عبد الله بن طاهر، وعبـيدة الطنبورية.

وتعقد أحـيانا كثيرة مجـالس الطرب والغناء فى غير المناسبـات التى ذكرتها قبلا، فهى تعـقد بمناسبة الاحتفـال بتولية خليفة جديد أو عندمـا يكون الخليفة أو الأمير راغبا فى الترفيه عن نفسه، وربما أقام الخليفة أكثر من مجلس فى ليلة واحدة كما كان يفـعل الخليفة الواثق. وفى هذه المجالس كان يجتمع المغنون والموسـيقيون والندماء والشعراء فيغنون فى حضرة الخليفة من خلف الستارة ويطرب الجميع فيبدأ الخليفة بتـوزيع آلاف الدنانير على الجوارى المغنيات والمغنين إضافـة على الشعراء.

ولم تقتصر هذه الحفلات على قصور الخلفاء إذ تعدتها إلى قصور الأمراء من الوزراء تشبها بالخلفاء، قد تدعو الطبقة الراقية الجوارى المغنيات إلى بيوت الحريك لإحياء حفلات غنائية نسائية. وانفرد الأمين بتعلقه بالخصيان فطلبهم من أماكن مختلفة وجعلهم لخلوته فى ليله ونهاره وقوام طعامه وشرابه، وأمره ونهيه، ورفض النساء الحرائر والإماء حتى قال أبو نواس:

أحمدوا الله جميعا يا جميع المسلمينا

ثم قولوا، لا تملوا ربنا اتق الأمينا

صير الخصيان حتى صير التغنين دينا

فافتدى الناس جميعا بأمير المؤمنين

ولم يتورع الأمين عن المجون والسكر، وكذلك المتوكل على الله الذى وضعه المسعودى بأنه "سكر سكرا شديدا" وإن المعتضد كان مشغوفا بالطرب، والغالب عليه المعاقرة ومحبة أنواع اللهو والملاهى.

ويقترن عادة مجالس الغناء والطرب بالشراب، وانفردت أحيانا مجالس خاصة بالشراب تنفق عليه الأموال الطائلة، ويحضرها الندماء وهم يتناقشون حول الندامة والشراب وأنواعه.

ولم تهمل حفلات الرقص، فقد لها نصيب فى حفلات الخلفاء والأمراء إذا أقيمت الحفلات الراقصة مناسبة الأفراح، فتتزين الراقصات بالثياب المزركشة ويحملن الزهور والرياحين، إلا أن نصيب الغناء كان أوفر من نصيب الرقص فى الانتشار والأهمية زمن الدولة العباسية ولم يهمل العباسيون أمر الصيد. .

وأخيرا هناك نوع آخر من المجالس هو مجالس القصاص التى كانت على نوعين: عامة وخاصة. فالمجالس العامة كانت تصطبغ بصبغة دينية هادفة إرشاد الناس لاتباع الطريق القويم بتذكيرهم بآيات الله وأخبار السلف. بينما كانت المجالس الخاصة كان قد استحدثها معاوية بن أبى سفيان، فيقف فيها القاضى بعد

صلاة الصبح ويذكر الله ويصلى على النبى ثم يبدأ بالدعاء للخليفة ولأهل بيته وحاشيته وجنوده ولكن هذه الصبغة الدينية لم تستمر طويلا مع القصاص لأنهم انحرفوا عن جانبها الدينى إلى القصص الخرافى أملا فى تحقيق المكاسب المادية. فاستطاعوا أن يستميلوا نسبة كبيرة من العامة للمستمعين رجالا ونساء على حد سواء وصارت هذه المجالس تعقد فى أماكن مختلفة تارة فى المسجد وتارة على الطرقات أوفى الأسواق، وتارة أخرى فى المقابر وهم يسردون أخبارهم الكاذبة تبعا لمخلية القصاص، وربما أنشدوا الأشعار الغزلية أو الماجنة ولما كانت أيضا أقوال هؤلاء القصاص لا تخلوا أحيانا كثيرة من نزعة ماجنة فقد ثار ضدهم بعض الكتاب والعلماء ونادوا بوقف نشاطهم، فأمر الخليفة المعتضد العباسى بمنع القصاص من الجلوس فى المساجد والطرقات. ثم شدد عضد الدولة سنة٣٦٧هـ فى منع القصاصين من الظهور بالمساجد وغيرها من الأماكن العامة. وفى عهد الخليفة القادر بالله أمر هو أيضا سنة ٤٠٨هـ بضرب القصاص واتخذ إجراءات مشددة للقضاء عليهم لكن مجالس الذكر سرعان ما أخذت تنافس مجالس القصاص فى القرن الرابع الهجرى لأن غالبية الذين يحضرون تلك المجالس كانوا من أهل التقى والإصلاح الذين انصرفوا عن مجالس القصاص بعد أن أحسوا بما فيها من انحرافات.

وعرف المجتمع العباسى أيضا مجالس الوعاظ، وهذه كانت ذات صبغة دينية يشرح فيها الواعظ المسائل الشرعية، ويجيب على تساؤلات الحاضرين.

وهذه المجالس كانت إما خاصة يجلس فيها الواعظ مع نفر قليل من الناس، وإما عامة يحضرها من يشاء من الناس. إلا أن هذه المجالس التى كانت فى البداءة ذات رسالة توجيه الناس نحو الخير والرشاد، لم تلبث فى القرنين الثالث والرابع بعد الهجرة أن تحولت إلى أداة للكسب، فانتشرت الخرافات والبدع على السنة والوعاظ، وانحط مستوى الوعاظ، وانصرفوا عن الجلوس فى المساجد إلى الجلوس بالمقابر وبعض المحلات الهامة. ولم يكتف بعض الوعاظ بهذا القدر، بل عمدوا

إلى إثارة الفتن بين السنة والشيعة، أو بين الحنابلة والشافعية، ثم أخذت هذه المجالس منحى سياسيا. وفى عهد القادر بالله صدرت مراسيم حددت مجال الوعظ فى القول بالمعروف والنهى عن المنكر.

* * *

الحياة الفكرية والثقافية

استطاع مفكرو الإسلام أن يسهموا بسهم وافر فى تراث البشرية، وأن يحفظوا خلاصة ما قدمته الحضارات السابقة من نتاج فكرى، ويطوروا هذه الخلاصة على أيديهم ويضيفوا إليها من ابتكارهم الشىء الكثير، مما جعل الحضارة الإسلامية بحق أعظم حضارة عرفها العالم أجمع طوال العصور الوسطى باعتراف مفكرى العالم.

وكان لانتقال حضارة الخلافة من دمشق إلى بغداد، وفى اعتماد الخلافة العباسية منذ بدء قيامها على الفرس، الأثر الأكبر فى نشاط عنصر الموالى فى الجانب الحضارى مثلما كان لهم النشاط الأعظم فى الحقل السياسى. وفى الوقت نفسه اهتم المسلمون بالعلوم النقلية أو الشرعية. علم الحديث، التفسير، والفقه والتشريع وما يرتبط بها من علم الكلام واللغة والبيان والأدب.

أولا: العلوم النقلية:

١ - الحديث:

نهى رسول الله عن كتابة الحديث حتى لا يختلط الحديث بالقرآن وهذا ما جعل عملية التدوين تتأخر إلى أن قام محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهرى، (ت١٢٤هـ) بأول محاولة لتدوين الحديث، إذ أنه كان يحفظ ألفين ومائتى حديث، وروى عنه كل من مالك وسفيان الثورى. ثم قام بعملية جمع الحديث الإمام مالك بن القرة (٣٠ - ١٣٧هـ) فى كتاب "الموطئ فى المدينة"، وعبد الله بن عبد العزيز، وابن جريج فى مكة، وعبد الرحمن الأوزاعى (ت١٧٦هـ) فى بعلبك - الشام، وشعبان الثورى (ت١٩١) فى الكوفة، وعماد بن سلمة بن لبنة فى البصرة (١٧٦هـ)، وجميعهم عاشوا وكتبوا الحديث فى القرن الثانى للهجرة.

وقد كان الهدف من جمع الحديث فى مختلف الأحوال والأمصار خدمة للتشريع بتسهيل استنباط الأحكام من الأحاديث المدونة، فجاء ترتيب المجامع فى القرآن الثانى للهجرة حسب الموضوعات. كأن تذكر الأحاديث الواردة فى موضع معين (الطهارة مثلا) فى باب واحد. ثم لجأ المهتمون بجمع الأحاديث النبوية إلى طريقة الأسانيد وتعنى هذه الطريقة ترتيب الأحاديث حسب الرواة من الصحابة، فتجمع الأحاديث إلى رواها صحابى واحد مهما اختلفت موضوعاتها: من صلاة أو زكاة أو ميراث.

وفى القرن الثالث للهجرة نشطت حركة جمع الحديث، ونقده بتمييز الصحيح من الغث، فوضعت أهم كتب الحديث أمثال: كتاب البخارى (ت٢٥٦هـ) ومسلم (ت٢٦١هـ) والترمزى (ت٢٧٩هـ) وغيرهم.

- التفسير:

نشأ التفسير أول ما نشأ مرتكزا على روى عن النبى الكريم فيما يتعلق بالقرآن الكريم وتفسير آياته. ثم تناقل التابعون عن الصحابة عملية التفسير حتى كان منهم من قام بتفسير بعض آيات القرآن وحتى ذاكرا سبب نزولها. فأصبح بالتالى لأهل التفسير طبقة تضخمت بمرور الزمن، ومع هذا لم تتخذ التفسيرات جميعها شكلا منظما، إنما كانت تروى الأحداث المتتابعة تفسيرا لآيات متفرقة.

ولم يمض وقت كبير حتى انفصل التفسير عن الحديث وأصبح علما قائما بنفسه، ثم انتظمت طريقة تفسير القرآن بوضع التفسير لكل آية من القرآن أو جزء من آية، مرتبة حسب ترتيب المصحف. فتسنى بذلك ظهور مجموعة من المفسرين ضاعت معظم تفاسيرهم، ولم يصل إلينا شىء منها إلا عن طريق ابن جرير الطبرى (ت٣١٠هـ)، وهو صاحب التفسير الكبير الذى يمتاز بتحرى الدقة والأمانة.

وخالف المعتزلة التفسير المأثور للقرآن، فكانت حجتهم فى ذلك أن كل تفسير للقرآن لا يعتمد على العقل والاجتهاد مرفوض من الأساس. لذلك أجهدوا

أنفسهم فى تفسير الآيات القرآنية تفسيرا يتفق مع أفكارهم ووجهة نظرهم. ومن أشهر العاملين فى التفسير من المعتزلة، أبى بكر الأصم (ت ٢٤٠هـ) وابن جرو الأسدى (٣٨٧هـ).

القرآن مصدر علم النحو والكلام والفقه:

اتخذ المسلمون فى العصر العباسى القرآن الكريم مصدرا لكثير من العلوم التى اشتغلوا بها. فعلماء النحو اتخذوا منه مادة خصبة اعتمدوا عليها فى استنباط قواعد اللغة العربية، وكذلك الفقهاء اعتمدوا عليه فى آرائهم الفقهية، والمؤرخون اتخذوا من القرآن الكريم مصدرا من مصادرهم وعلماء الكلام فسروا القرآن بما يتفق ومبادئهم.

واصطبغ العصر العباسى بصيغة دينية كان لها الأثر الواضح فى حقل التشريع فشملت مهمة الفقهاء ميادين واسعة امتدت إلى شؤون الرى والضرائب والدواوين... ونتيجة لاتصال الخلفاء بالعلماء ورجال الدين وتدخل الخلفاء فى كثير من المسائل المرتبطة بالدين أن ظهر الخلفاء العباسيون فى صورة رجال الدين والسياسة جميعا. وقد تمسكوا بهذه الصفة (الدينية والسياسية) بوصفهم من آل البيت وأصحاب حق مقدس فى الحكم (نظرية الحق الإلهى المقدس).

- المذاهب الأربعة:

ازداد عدد المشتغلين بالفقه الإسلامى نتيجة ازدياد وامتدت مساحة الدولة الإسلامية فى العصر العباسى وتباعد أطرافها فتضخم ونما نموا كبيرا الفقه الإسلامى وكان مع هذا النمو والاتساع أن اختلفت وجهات النظر بين الفقهاء الأمر الذى أدى إلى زيادة الاعتماد على القياس والاستنباط. وبالتالى أخذ الفقهاء يتناظرون فى هذا المجال أينما اجتمعوا. فى المساجد وفى حلقات الدرس، وفى المنازل وعند اجتماعهم للحج، فكثر الاجتهاد والمجتهدون من الفقهاء وتعددت مذاهبهم فى العصر العباسى، واشتهر من هذه المذاهب أربعة:

أ - المذهب المالكى:

كان مالك إمام دار الحجاز وزعيم الفقهاء الذين يأخذون بطريقة الحديث فاعتمد فيها المفسرون على مؤهلات التفسير. ورواية موروثة. وانتشر هذا المذهب فى شمال أفريقية والأندلس فى العصور العباسية. وتتلمذ على مالك مصريون وأفارقة ومغاربة وأندلسيون واستمع له تلامذة من البصرة وبغداد وخراسان وأهم مؤلفاته: "الموطأ".

ب - المذهب الحنفى:

أبو حنيفة كان إمام العراق وزعيم الفقهاء الذين يأخذون بطريقة الرأى والقياس (الاجتهاد). تولى أبو حنيفة القضاء على عهد بنى أمية، لكنه رفض تولية أيام العباسيين فاضطهده المنصور ووضعه فى السجن حتى توفى فيه. تتلمذ عليه عدد كبير من التلامذة اشتهر منهم: القاضى أبو يوسف المتوفى سنة ١٨٢هـ/ ٧٩٨م. وأهم ما تميز به المذهب الحنفى هو حل المسائل الشرعية بروح التسامح.

ج - المذهب الشافعى:

ساد المذهب الشافعى فى مصر وأفريقيا وهو وسط بين المذهبين السابقين، بمعنى أنه كان يأخذ بطريقة أهل الحديث أحيانا، وبطريقة الرأى والقياس أحيانا أخرى. لذلك اعتبره البعض واضع علم الأصول الذى حدد له الضوابط وبالموازين. للشافعى مؤلفات منها: رسالة فى أصول الفقه و"كتاب الأمم" وتتلمذ عليه أحمد بن حنبل.

د - المذهب الحنبلى:

وصاحبه أحمد بن حنبل الذى لم يأخذ بالاجتهاد لذلك كان عدد أتباعه قلائل وهو إمام أهل الحديث فى عصره. سمع لأشهر العلماء فى عصره وأخذ عن أكابر المحدثين وتنقل طلبا للعلم بين الكوفة والبصرة والشام واليمن ومكة والمدينة.

يعد المذهب الحنبلى أكثر المذاهب المتقيدة بالسنة دفاعا عن معتقداتها دعما للعباسيين.

على أن أول من فسر القرآن تفسيرا أمينا هو يحيى بن زياد المشهور بالقراء - إمام الكوفيين - والذى كتب معانى القرآن وتتابع بعده المفسرون ومن أشهرهم: ابن جرير الطبرى، أبو محمد عبد الحق بن عطية الأندلسى، والقرطبى - بالمأثور - اعتماد الرواية الموروثة المسلسلة عن الصحابة والتابعى - وأشهر المفسرون بالرأى مفسرو المعتزلة وأشهرهم الزمخشرى، والشيعة وممثلهم الطبرسى.

ولما كان أصحاب المذاهب الأربعة المثار إليها قد أسس كل منهم مدرسة تتبع منهجًا معينًا فى الفقه الإسلامى فقد لجأ أتباع هذا المذهب أو ذاك إلى جمع الفتاوى التى تتناسب وتؤيد وجهة نظرهم الفقهية وتدوينها. الأمر الذى أدى إلى حركة تدوين واسعة فى الفقه الإسلامى فمحاولة الاستنباط منها.

نستطيع القول بعد تلك الكلمة العجلى أن العصر العباسى كان أكثر العصور الإسلامية نشاطًا فى التشريع وأوفرها عددًا فى الفقهاء والمجتهدين. وإن هؤلاء الفقهاء اعتمدوا على اجتهاداتهم الذاتية، وتمتعوا بقدر كبير من الحرية حتى جعلوا العرف فى أسس التشريع، مستندين إلى حديث شريف «ما رآه المسلمون حسنًا فهو عند الله حسن... وأن الفقهاء - استنادًا إلى العرف - أخذوا هذه العادات واختاروا الصالح منها وأدخلوه فى الفقه، وأخيرًا أن تعدد المذاهب الفقهية فى العصر العباسى يشير إلى حرية الرأى التى تميز بها هذا العصر.

٢ - اللغة والأدب:

كانت اللغة ممتزجة بالأدب فى القرن الأول للهجرة وما قبله بحيث أن العالم بالنحو كان عالمًا باللغة، وإن برز فى أحدهما على حساب الآخر بعض العلماء. ولما بدأ تدوين اللغة والنحو، كان العراق أسبق الأمصار الإسلامية فى ذلك أن الفضل فى العراق نفسه كان للبصريين، ثم الكوفيين فالبغداديين على التوالى.

كما كان من الطبيعى أن تمر عملية جمع اللغة بثلاث مراحل:

- الأولى:

تمت فى هذه المرحلة جمع الكلمات. حيثما اتفق وتدوينها دون ترتيب.

- الثانية:

جمعت الكلمات المتعلقة بموضوع واحد فى موضوع واحد فى هذه المرحلة كما ألفت فيها كتب فى موضوع واحد، فألف أبو زيد كتابًا فى «المطر» وكتابًا فى «اللبن» وألف الأجمعى كتبًا فى «البخل والكرم» وكتابًا فى «الإبل»....

- أما فى المرحلة الثالثة:

فقد وضع معجم يشمل كل الكلمات العربية على نمط خاص، ليرجع إليه من أراد البحث عن معنى كلمة. وكان السباق إلى وضع معجم فى اللغة العربية الخليل بن أحمد (١٠٠ - ١٧٥هـ) وقد عاصره كل من الأصمعى (١٢٢ - ٢١٣هـ) وأبو زيد (ت ٢١٥هـ) الأمر الذى يوضح بأن الثلاثة قد عاشوا معًا زمنًا طويلاً. وإن المراحل الثلاث كانت أقرب إلى التداخل منها إلى أن تكون منفصلة بعضها عن بعض. ولما لم يكن فى الإمكان جمع الأدب كله لكثرته، فإنهم، عند الجمع، اختار علماء الأدب ما كان يحلو لهم من الشعر والنثر سواء، كما حدث عند جمع اللغة، ودونوه فكانت لهم المختارات الشعرية والنثرية.

٣ - النحو والصرف:

انكب بعض العلماء على دراسة اللغة، كما انكب الفقهاء على دراسة القرآن والأحاديث دراسة نحوية وصرفية فكان من أبرز علماء النحو والصرف فى العصر العباسى الأول الخليل بن أحمد «الذى دأب على دراسة اللغة وعلومها، يخترع ويستنبط الأصول، إلى أن كان أول من ابتكر المعاجم العربية وأول من وضع علم العروض واخترع علم الموسيقى العربية وجمع فيه أصناف النغم. والخليل بن أحمد هو الذى عمل النحو الذى نعرفه اليوم «ومد أطنابه، وسبب علله، وفتق

معانيه. . . » على حد قول الزبيرى. وقد علم الخليل بن أحمد كل ذلك «لسيبويه» الذى عمل على تدوين الأمانة التى أخذها عنه.

ونهج فى الأدب بعض من شعراء العصر العباسى وفق مناهج جديدة فى المعانى والموضوعات والأساليب. فاشتهر أبو نواس فى شعر الخمر والغزل والصيد، وأبو تمام الطائى الذى اشتهر بنزعته الفلسفية والعقلية فى الشعر، والبحترى صاحب الأوصاف البديعة والمدائح الخالدة، وابن الرومى صاحب الشعر الغزير الذى اتصف بالمعانى النادرة، وأبو العتاهية صاحب قصائد الغزل والحكمة والموعظة.

وكانت وراء ارتقاء الشعوب وتطورها وظهور مناهج جديدة فى العصر العباسى أسباب عديدة منها:

١ - اختلاف صور الحياة وقيم الأشياء فى الدولة العباسية عنها فى العصور السابقة.

٢ - أثر الثقافة الأجنبية عامة والفارسية خاصة فى الشعر والأدب العباسى.

٣ - انتشار الشعوبية التى عملت على الحط من شأن العرب ونقد أشعارهم.

٤ - تشجيع الخلفاء الوزراء وكبار رجال الدولة للشعر والشعراء.

٥ - الخلافات التى قامت بين الفرق كالشيعة والمعتزلة، واستعانة كل فريق بالشعر والشعراء للدفاع عن مبادئه والتغلب على خصومه.

ولم يكن حظ النثر أقل من حظ فى العصر العباسى، فظهر فى مجال النثر عبد الله بن المقفع الذى نقل كثيرا من الكتب الفهلوية إلى اللغة العربية مثل كتاب كليلة ودمنة، وعبد الحميد الكاتب الذى يعد شيخ صناعة الكتابة، وابن قتيبة الذى نادى بالتحديد فى الكتابة، والجاحظ البصرى الذى اشتهر بحرية الفكر. . . . وغير هؤلاء كثيرون.

ثانيًا: العلوم العقلية:

نشطت حركة الترجمة عن اليونانية والفارسية والفهلوية وغيرها من اللغات إلى العربية حتى ازدهرت هذه الحركة فى العصر العباسى بفضل تشجيع الخلفاء العباسيين لها. فبدأ أبو جعفر المنصور عهده بترجمة الكتب، فنقل له حنين بن إسحاق بعض كتب أبقراط وغالينوس فى الطب، ونقل ابن المقفع بعض الكتب.

ولقيت حركة الترجمة العناية التامة فى عهد هارون الرشيد وعهد ابنه المأمون، فأرسلت البعثات إلى القسطنطينية لإحضار المصنفات الفريدة فى الفلسفة والموسيقى والطب وغيرها. ولم تقتصر العناية بحركة الترجمة على الخلفاء فقط بل سمعنا عن بعض دوى اليسار الذين أنفقوا أموالاً طائلة فى استحضار الكتب، مثل موسى بن شاكر وهم محمد وأحمد والحسن الذين أنفذوا حنين بن إسحاق إلى بلاد الروم فاستحضر لهم عددًا من الكتب الفريدة فى الهندسة والموسيقى والنجوم وغيرها..

١ - فى الفلسفة والفلاسفة:

ازدهرت الفلسفة فى العصر العباسى، واشتهر ممن تأثروا بالفلسفة اليونانية يعقوب بن إسحاق الكندى، وقد تأثر بفلسفة المعتزلة ورائهم، كما تأثر بالفلسفة اليونانية وخاصة فلسفة أرسطو، واشتغل بالرياضيات، وما وراء الطبيعة وكتب مؤلفات فى الفلسفة والمنطق والحساب والموسيقى والنجوم والهندسة والفلك والطب والجدل والسياسة. واشتهر عمالقة آخرون إلى جانب الكندى، أمثال: أبو نصر الفارابى (ت ٣٣٩هـ) والرئيس ابن سينا (ت ٤٢٨هـ) والغزالى (٥٠٥هـ). هذا على الرغم مما تعرض له الفلاسفة فى بعض حلقات العصر العباسى نتيجة لاتهامهم بالزندقة.

واشتهر أيضًا فى العصر العباسى بالفلسفة إخوان الصفا الذين كانت لهم نزعة شيعية متطرفة، لذلك عطف عليهم آل بويه ولاقوا كل عناية منهم. فاستطاع

إخوان الصفا إتمام مـا بدأه المعتزلة، وخاصة ما يتـعلق بالتوفيق بين العلوم والدين وتحقيق الانسجام بين الشريعة والفلسفة اليونانية. لذا لجأوا إلى تأويل القرآن تأويلاً مجازًا وانتخبوا رسائل تعتبر دائرة معارف ضخمة.

٢ - فى الطب والأطباء:

تقدمت العلوم الطبية تقدمًا كبيرًا، الأمر الذى جعل العباسيون يعتمدون على الأطباء العراقيين والهنود بعدما توصلوا إلى تشخيص بعض الأمراض بفضل العلوم اليونانية التى أفادوا واستـفادوا منها. وبخاصة حينما عمل الخلفـاء العباسيون على تشجيع الأطباء وتأسيس المدارس الطبـية والمستشفيات. فقد أمـر أبو جعفر المنصور ببناء مستشفى للعميان ومأوى للمـجاذيب ولجأ للعجزة فى بغداد. كنا شيد هارون الرشيد مـستشفى كبيـر لتعلم الطب زوده بمكتبة حوت المؤلفـات اليونانية والهندية والعربية وكذلك الطبية.

واشتهر ابن بختيشـوع فى الطب على أيام الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل الذين كانوا يثقون به ثقة كبـيرة فسمحوا له بالكشف على نسائهم ومعالجة أولادهم، كما اشتهر فى عـهد المعتصم والواثق يحيى بن ماسويه. إضافة إلى حنين بن إسحاق وابنه إسحاق بن حنين اللذين كانت لهما المؤلفات الكثيرة فى الطب والعقـاقير الطبيـة. وفى عهد الخلافـة العباسيـة أشرف سنان بن ثابت على امتحان الأطباء فى بغداد سمح بنهايته لثمان وستين طبيبا بمزاولة مهنة الطب شريطة أن يحتفظ كل طبيب بصورة عن الوصفة الطبية (اسم الدواء) التى يعطيها للمريض لتقديمها إلى الرئيس (النقيب) ليفحصـها ويحكم بالموافقة إذا كان العلاج متفقًا مع القوانين وإلا حلت عقوبة قاسية بالطبيب خاصة إذا توفى مريض بسبب الإهمال أو الخطأ فى وصف الأدوية من قبل الطبيب المعالج.

وتقـدم الطب والأطباء كـان وراء تشجـيع العبـاسين الذين لم يهـملوا بناء البيمـارستانات أو المستـشفيات أيضـاً وأولها عناية فائقة. كـما شجعوا عـلى كتابة المؤلفات الطبيـة التى تشرح أسباب الداء وتصف الدواء، فـاشتهر أبو بكر مـحمد

الرازى (ت ٣١١ هـ) فى حقل المؤلفات الطبية بتأليفه كتاب " المنصورى" والذى أهداه إلى منصور بن نوح السامانى صاحب الدولة السامانية فى بلاد ما وراء النهر فنسب إليه - المنصورى - وكذلك كتب الرازى كتاب "الحاوى" تحدث فيه عن الأمراض والصحة والجراحات والأدوية فنجح نجاحا كبيرا فى تشخيص الحميات ذات البثور كالجدرى والحصبة ووصف الدواء لهما. ويجب ألا ننسى كتاب "القانون فى الطب" لابن سينا الذى كان من الموسوعات الطبية والتى ظل يدرس فى الجامعات الأوروبية حتى القرن الثامن عشر بعدما ترجم إلى اللغة اللاتينية.

٣ - فى علم الفلك والفلكيون:

سيطرت أقوال المنجمين وعلم النجامة على تفكير الحكام، فلم يفعلوا شيئا أو يقوموا بعمل هام كشن الحرب قبل أخذ رأى الفلكيين - شأن العرب فى ذلك كشأنهم أيام الجاهلية - والأمثلة على ذلك كثيرة فالخليفة أبو جعفر المنصور اعتمد على أقوال المنجمين عند بنائه مدينة بغداد. كما أخذ برأى المنجمين عند بنائه مدينة بغداد. كما أخذ برأى المنجمين جوهر الصقلى مولى وقائد جيوش الفاطميين عند تأسيسه مدينة القاهرة. وهكذا لم يضع المنصور الحجر الأساسى لمدينته إلا بعد أن أشار عليه أبو سهل بن نوبخت المنجم بأن النجوم تشير إلى ازدهار هذه المدينة وطول عمرها. والشيء نفسه تكرر أمام جوهر الصقلى إذ أشار عليه المنجمون بعدم رمى ما بأيدى العمال من طين وحجارة فى الأساس قبل تحرك الأجراس التى ربطت بالحبال حول السور بناء لإشارة المنجمين الذين وقفوا ينتظرون اختيار طالع حسن لذلك حتى تبقى المدينة لهم ولنسلهم من بعدهم.

هذا التفكير فى العصور الوسطى أنعش الدراسات الخاصة بالفلك والنجوم فى العصر العباسى واشتهر فى علم الفلك فى عهد المنصور محمد بن إبراهيم الغزارى وفى عهد المأمون محمد بن موسى الخوارزمى (ت ٨٥٠م) وكذلك موسى بن شاكر وهم: محمد وأحمد والحسن كما أنشأ علماء الفلك مراصد لمشاهدة النجوم، وضبط أبعادها ومراقبة سيرها فى الشماسية ببغداد، وفى جبل قاسيون

المشرف على غوطة دمشق. وظهرت مجموعة من كبار العلماء الذين اشتغلوا بهذه العلوم ومنهم، أبو عبد الله محمد بن جابر البتانى الحرانى الصابى (ت٣١٩هـ) الذى وضع الزيج الصابى وألف كتاب معرفة مطالع البروج فيما بين أرباع الفلك وظهر بعد القرن الرابع الهجرى أبو الريحان البيرونى (ت٤٤٠هـ) الذى حظى بمكانة كبيرة عند السلطان محمود الغزنوى.

ويرتبط بالعلوم الفلكية، العلوم الرياضية، التى اشتهر فيها ثابت بن قرة الحرانى (٢٨٨هـ) وسنان بن ثابت (٣٣١هـ) اللذين تركا كثيرا من الدراسات والأبحاث فى المسائل الهندسية والأعداد وغيرها. هذا إضافة إلى أعمال الخوارزمى والبتانى والخازن والبصرى والبيرونى، وغيرهم ممن كتبوا وابتكروا فى الحساب والأعداد الهندسية وحساب المثلثات والجبر.

٤ - فى التأريخ والمؤرخون:

شعر المسلمون منذ الأيام الأولى، لظهور الدولة الإسلامية وفتوحاتها وسيطرتها السياسية على بلاد جديدة واسعة بالحاجة إلى تدوين تاريخهم الذى بدأ فى المدينة والبصرة والكوفة فى العصر الراشدى ثم تلتها دمشق فى العصر الأموى. ولما ظهرت بغداد فى العصور العباسية استقطبت الفكر الثقافى كله إلى حد غابت معه عملية التدوين فى المدينة ودمشق، وقلت فى البصرة والكوفة فشكلت كل مدينة من هذه المدن مدرسة للكتابة التاريخية، على أن الكتابات التاريخية التى ظهرت فى البداءة إنما وضعت على أساس بحت. ذلك أن المؤرخين بدأوا بكتابة السيرة النبوية والمغازى ثم تدوين القرأن الكريم وتفسيره والحديث النبوى. ومن المؤرخين فى العصر العباسى كان الواقدى (١٣٠ - ٢٠٧هـ) الذى عنى بكتابة المغازى والسير والتاريخ الإسلامى عامة.

فألف تاريخه الكبير "مغازى الرسول" وكتاب "الطبقات الكبير"، الذى رتبه حسب السنين. وكتب "الطبقات" و"السيرة" وكتاب "التاريخ والمغازى والمبعث" وكتاب "أزواج النبى" وكتب "فتح العراق" و"فتوح الشام" وغيرها الكثير إلا أن

أهمها جميعا "الطبقات أو التاريخ الكبير" وفيه أرخ الكثير من أحداث الإسلام حتى عهد خلافة هارون الرشيد، وقد أخذ عنه الطبرى فى كتابه "تاريخ الرسول والملوك" حتى سنة١٧٩هـ. ولكن لم يبق لنا من كتبه إلا كتاب "المغازى" واليعقوبى، (ت٢٨٤هـ) والمسعودى (٣٤٦هـ) وابن الدينورى (ت٢٧٠هـ) الذين كتبوا فى تاريخ الدول والعهود.

وكتب التاريخ حسب الموضوعات، كما كتب حسب الطبقات بصرف النظر عن السنين. إذ ارتبط التاريخ حسب الطبقات بعلم الحديث والعلوم الدينية الأخرى، فجاءت "طبقات ابن سعد" ترجمات لشخصيات محدثة هامة و"طبقات الشافعية" للشعرانى تراجم لشخصيات فقهية، وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة، وطبقات الشعراء لابن المعتز وغيرها...

واشتهر فى علم الأنساب محمد بن السائب الكلبى (ت ١٤٦هـ) وابنه محمد بن السائب الكلبى (ت ٢٠٤هـ) ومصعب الزبيرى (ت ٢٣٣هـ) وتلميذه وابن أخيه أبو عبد الله الزبيرى بكار بن مصعب القرشى (ت ٢٥٦ هـ) الذى كتب "نسب القرشيين" فى مجلدين ثم أحمد بن يحيى البلاذرى (ت ٢٧٩هـ) الذى ترك لنا كتابه الكبير (أنساب الأشراف) الذى شاءه سجلا عاما للتاريخ الإسلامى، انطلاقاً من دراسة شخصيات الأشراف عن طريق أنسابهم ويبدأ الكتاب بالحديث عن الرسول أفضل الأشراف العرب.

٥- فى الجغرافيا:

أدى اتساع رقعة الدولة العباسية وانتشار البريد فى سائر أقاليم الدولة، وازدهار التجارة فى العصر العباسى الأول إلى الاهتمام بالطرق وبأخبار البلاد والعباد ولاسيما النائبة منها. فكثرت الأسفار وازداد عدد الرحالة حتى وصلت رحلات المسلمين فى عهد الرشيد إلى الهند وسيلان والصين، فضلا عن الرحلات التى ارتبطت بزيارات الحج إلى مكة والمدينة.

ظهر من الجغـرافيين فى العصـر العباسى الأول ابن خرداذية صـاحب كتاب المسالك والممـالك الذى يعتبـر أقدم الكتب الجـغرافية الـتى ظهرت باللغة العـربية وتوفى ابن خـــرداذبة (ت٣٠٠هـ) وكـان يعـمل فـى البـريد فى إقليـم الجـبـال (ت٢٧٤هـ) وعنوان كتـابه "المسالك والممالك" ثم الخـوارزمى محمـد بن موسى المتوفى فى منتـصف القرن الثالث للهـجرة، وواضع كتاب "صـورة الأرض" وقد ضمنه خريطة متشابهة لخريطة بطليموس عن العالم القديم، ولذلك يعد الخوارزمى أول صانعى الخرائط من المسلمين.

لكن كتابة الجغرافيا تتطورت فى القرن الرابع الهجرى وأرست قواعد مدرسة فى الجغرافيا العربيـة التى ارتبطت بالتاريخ عن طريق: اليعقوبى (ت٢٨٢هـ) الذى ألف كتاب "البلدان" نتيجة رحلات طويلة قام بها إلى أرمينيا وإيران والهند ومصر وبلاد المغرب. وكتب الهمدانى (ت٣٣٤هـ) كتابه "صـفة جزيرة العرب". واشتهر المسعـودى (ت٣٤٣هـ) لكتابه "مـروج الذهب ومعـادن الجوهر" الذى كـتبـه بعد زيارته الفرس والهند وجزيرة سرنديب (سيلان) وبحار الصين، فضلا عن سواحل شرق أفريقيا والسودان، وإقليم بحر قزوين، وكذلك الأصطخرى، الذى عاش فى القرن الرابع الهجرى وكتب "الأقاليم"، موضحا إياه بالخرائط. وكتب أيضا كتاب "المسالك والممالك" واضعا فيه مشاهداته البلاد التى زارها.

ومن كـتاب المدرسـة الجغـرافيـة العـربية أيضـا: ابن حوقل - المقـدسى - الإدريسى - البكرى - المهلبى - البـيرونى (ت٤٤٠هـ). وهذا الأخـير يعـود إليه الفضل فى إرساء قواعد الجغرافية القـائم على المشاهدة والرحلة والتجربة الشخصية كما كان عند العرب الأوائل.

***

المراجع

١ - د. أحمد الشامى: الدولة الإسلامية فى العصر العباسى الأول - دار الإصلاح - الدمام - ١٩٨٥م.

٢ - د. حسن الباشا: الدولة العباسية، القاهرة - ١٩٨٧م.

٣ - د. إبراهيم أيوب: التاريخ السياسى والحضارى - بيروت - ١٩٨٩م.

* * *